

محمود بن الشريف

الأمثال في القرآن

الأمثال في القرآن

محمود بن الشريف

الأمثال في القرآن

الطبعة الثانية



حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار عكاظ

جدة - طريق الميناء - ص . ب : ٥٩٤٩
الرياض - شارع التلفزيون ص . ب : ٢٩٣٤

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾

من سنن الهدى الإسلامى مراعاة النفسيات ..
 فهناك نفس متينة مكينة ، ونفس هشة قميئة ، وثالثة كافرة
 فاجرة وأخرى مارقة ماجنة .. ألوان من نفسيات متباينة
 متغايرة ، لكل منها عند القرآن علاج خاص .

فالنفس الخيرة المؤمنة ، التى تزيدها الدعوة استمساكاً
 بعقيدتها ، وإيماناً على إيمانها ، وتقريراً لمفاهيم العقيدة وثبتيّاً
 لمبادئها ، وتوكيداً لتعاليمها .. هذه النفوس يربّيها القرآن تربية
 خاصة ، تربية مثالية قوية ، تتواءم مع قوتها ، وتتلاءم مع
 إيجابيتها .

والنفوس الهشة الضحلة الإيمان الضعيفة البنيان يحصنها
 القرآن بما يقدم لها من بالغ كلمه وبارع حكمه ورائع مثله وجميل
 إرشاده وجليل توجيهه ، وتظل تتقبل وتزدرد حتى تنفعل
 وتتشبع .. وحتى يستقيم عودها ويتكامل بنيانها .

مزاج من نصح ، وأمشاج من هداية ، ومقادير من أدوية تقدم لكل نفس بعبارة وقدر ، فما يصلح لإحداها لا تنتفع به أخرى ، وما ترغب فيه نفس ترغب عنه أخرى . . وما يقنع نفساً مطمئنة تعافه نفس جامحة شמוש . .

ومن أجل هذا كانت الأمثال في القرآن لوناً من ألوان الهداية الإلهية تغري النفوس على الخير ، أو تحضها على البر ، أو تمنعها من الإثم أو تدفعها إلى فضيلة ، أو تدفع عنها شائبة أو تمنع نقيصة .

ومن أجل هذا أيضاً تناولت الأمثال القرآنية مجالات عدة ، فمثلت الإيمان ، ومثلت بالكفر ، وفضحت النفاق وحضت على الإنفاق ونادت بالخير ونددت بالشر ، وصورت الطيب والحبيث والصالح والطالح وغير ذلك مما أشادت به أو أشارت إليه .

ثم نجد الأمثال قد أبرزت المعقول في صورة مجسمة ، وألبست المعنوى ثوب المحسوس ، وفصلت المجرى وأوضحت المبهم ، لتهدب بذلك الطبائع وتعلم الغرائز الشريرة ، وتحفف من غلواء النفوس ، وتحد من ضراوتها وتطامن من كبريائها وغرورها .

وفي ذلك يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه « أسرار البلاغة » : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا

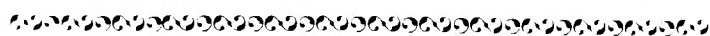
جاء في أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ،
ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها
منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى
تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثارها من أقاصى
الأفئدة صباية وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطىها محبة وشغفاً ،
فإن كانت مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم وأهز
للعطف وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ،
وأوجب شفاعَةً للمادح ، وأقضى له بغرر المواهب والمنائح ، وأسير
على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذمّاً كان مسه أوجع وميسمه الذع ووقعه أشد ،
وحده أحد ..

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه
أبهر ..

وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجدّ ، ولسانه
ألدّ ..

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ،
وللسخائم أسلّ ، ولغرب الغضب أفلّ ، وفى عقد العقود أنفت ،
وعلى حسن الرجوع أبعث .



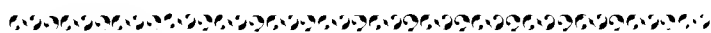
وإن كان وعظماً كان أسفى للصدر وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يحلّى الغياة ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ويسفى الغليل . »

ويقول العلامة أبو السعود في تفسيره : « .. والتمثيل الّطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبى ، وفتح ثورة الجامح الأبى ، كيف لا ؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبرازها في معرض المحسوسات الجلية ، وإبداء للمنكر في صورة المعروف ، وإظهار للوحنى في هيئة المألوف » .

وقال ابن المقفع : « إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وأتق للسمع ، وأوسع لسعوب الحديث » .
وقال إبراهيم النظام : « يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة » .

* * *

وفد راع المعاندين والمكذّبين هذا النمط من الأسلوب القرآنى ، وذلك اللون من التربية الإلهية ، واستنكروا أن يضرب



الله الأمثال زاعمين أن الله أعلى من ذلك وأجلّ .. نم تغالوا في استنكارهم وتساءلوا متعجبين : أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله بها الأمثال ؟ !

وجادلوا ، محتجين بأن الله عظيم ولن يتضمن كلامه إلا كل عظيم ..

ويردّ عليهم القرآن بأن المولى سبحانه لا يرى من النقص أن يضرب مثلاً بالبعوضة ، أو بأصغر منها حجماً ، فالمثل حق يدعو إلى حق يعترف به المؤمنون فيزيدهم تمسكاً بإيمانهم ، وينكره المارقون الجاحدون فيزيدهم غواية على غوايتهم ، « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين ..» (١)

* * *

وما الصور التي رآها رسولنا الكريم محمد صلوات الله وسلامه

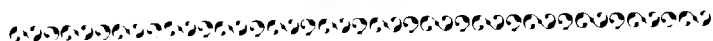
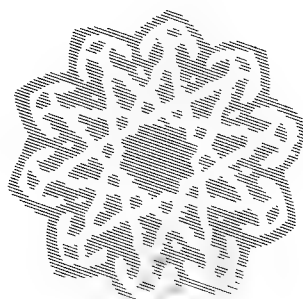
(١) آية ٢٦ من سورة البقرة .

عليه في رحلته الإلهية عند معراجهِ إلى السموات العلى إلا أمثال
محسوسة ملموسة ، وصور مصغرة جسمت سرائح وقطاعات
حادث عن المجادة في حياتها الأولى ، فكان مآلها هذا المصير
المهين القاتم ..

وكانت هذه الصور ، أمثلة حية كرم الله نبيه برؤيتها ، وربّاه
بها وأدبه ، وصلى الله على الذى قال « أدبنى ربى فأحسن
تأديبى »

والله الموفق ، وهو المعين •

محمود بن الشريف



نرى القرآن في بعض أمثاله يتغلغل إلى الأعماق ٠٠ أعماق المنافقين ، فيكشف عن منازعهم ونوازعهم ، ويبين خوالجهم ونبضاتهم ، ويميط اللثام عن أدق حالاتهم وأحوالهم ، ويلون سلوكهم ومشاربهم عندما يضرب لذلك أروع التشبيهات وبالغ الصور .

فها هو ذا - في أول سورة من سوره الطوال سورة البقرة - يحلل اتجاهاتهم ، ويرسم لهم بأسلوبه المشرق الأخاذ صورة تنبض بما يجيش في أعماقهم ، وتومئ إلى ما حاولوا الحفاظ عليه ، وتفضح ما خفى من نقائصهم ونقائصهم .

(١) وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون [١٥] الله

(١) انفردوا بإخوانهم في الكفر .

يستَهزِءُ بهم ويمدِّهم في طغيانهم يعمهون ^(١) [١٦] أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين [١٧] مثلهم كمثل الذى استوفد ناراً ^(٢) ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون [١٨] صمّ بكم عمى فهم لا يرجعون [١٩] .

هذا لون من المنافقين أتاهم الله ديناً فيه هداية ، وسريعة فيها صلاح وفلاح ، فأمنوا إيماناً ظاهرياً ، وعطلوا عقولهم ، وألغوا تفكيرهم ، ولم ينتفعوا بما جاءهم ، ولم يقتفوا نهج من سلفهم ، وكانوا أمة وحدهم ، فابتكروا لأنفسهم منازع واتجاهات انحرفت بهم عن السنن الظاهر ، والحجة الواضحة ، ولم يكتشفوا أنفسهم واهدى القائم بينهم والخير السائد فيهم ، والنور الغامر لمن حولهم من المؤمنين الخالصين . . فعموا عن كل ذلك ، وصموا وضربوا صفحاً عن هدى الله ، وجعلوا بينهم وبين النور حجاباً منيعاً وسداً صلباً ، فعاسوا بمعزل عن الحق وبمنأى عن الضياء ، يهيمون في ديجور من الضلال وفي متاهة الباطل ، لم ينعموا بما نعم به مخلصو المؤمنين من خير ونور وهدى .

(١) يعمهون : يحورون .

٢١ سؤدد : طلب وقوده .

مثل هؤلاء الصمّ البكم العمى فى نفائهم كمثل الذى أوفد
ناراً لينتفع بها فى ليله الحالك فلما أضاءت النار ما حوله ، فرأى
الضياء والسناء ، سرعان ما أطفأها مطر شديد ذو ريح عاصف
أخذ أوارها وبدد لهيبها ٠٠ فتحير ٠٠ وتخطب فى الظلمات
لا يدرى ما يتجنبه ولا ما يتقيه !!

(أو كصيّب ^(١) من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون
أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط
بالكافرين [٢٠] يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم
متوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم
وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير [٢١])٠

وهذا صنف آخر من المنافقين ، كان فيهم بقية من رجاء ورمق
من حياة ٠٠ أصاحوا بحواسهم ومساعرهم إلى صوت الإيمان
الحق ، فاستجابوا له وآمنوا به ٠٠ ثم ساروا فى طريق الله ،
يقتبسون أحياناً من نور التعاليم الإلهية ، وتضىء سبيلهم معالم
الشريعة ونور الحقيقة ٠٠ ويسيروا خطوات ثم تتهاوى
أقدامهم وتتعثر خطاهم ٠٠ وتعنى بصائرهم وتزيغ أبصارهم

١١) لفسب المردة لمطر ونسجات ٠

وينتكسون عندما يحكمون عقولهم ، وتطفئ عليهم تقاليد
موروثة ، وتعتلج في نفوسهم روايب عفنة فتتهيج وتعيد بهم عن
الجادة ، وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم .

يمثل القرآن حالة هذا الصنف الذى آمن ثم نكص ، والذى
انتفع آونة بإسلامه ثم أض إلى ما كان عليه بحال قوم كانوا
يسكرون في مهمه متسع ، وفي فلاة فسيحة يلفهم فيها ظلام
الليل الحالك فوقفوا حيث هم يتلمسون النجاة ولا سبيل
إليها !!

ثم نزل بهم مطر غزير فيه رعد وبرق وصواعق . . وفصف
الرعد ولع البرق ودوت الصواعق . . وبين دفعات الخوف
ودفعات الرجاء يمشون خطوات في ضوء البرق الخاطف . . ثم
يذهب البرق ويذهب معه الضوء ويطبق عليهم الظلام وتحيط بهم
العممة فيقفون في مكانهم ويسيرون على حيرتهم ومخاوفهم مجترين
أوهامهم وضلالاتهم .

وأظهر هذان المثالان للمؤمنين أن المنافقين في كل عصر وأن
متفاوتون ، ليسوا على شاكلة واحدة في الزيغ والمروق والخروج
على المحجة والتعاليم . . منهم من استقى من نبع الإيمان
~~~~~

الصافي ثم ارتد إلى الوحل يعبّ من الماء الراكد الأسن ..  
ومنهم من ظل هيان صادياً يسدر في غوايته ويهيم في ضلاله بعد  
أن ازورّ عن المنهل العذب ، وهو منه جدّ قريب ..

وإلى هذا ينسیر الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسيره فيقول :  
« ضرب الله <sup>(١)</sup> تعالى لهذا الصنف في مجموعته ( يقصد المنافقين  
في كل عصر وزمان ) مثلين ، ينبئان بانقسامه إلى فريقين ،  
خلافاً لما عليه أكثر التفاسير في أن المثليين لفريق واحد ، وأن  
معناها وموضوعها واحد ..

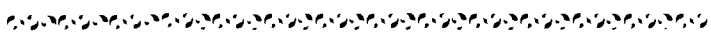
( الأول ) من آتاهم الله ديناً وهداية عمل بها سلفهم فجنوا  
نمرها ، وصلاح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ،  
أخذين بإرساد الوحى ، واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم  
انحرفوا عن سنن سلفهم في الأخذ بها ظاهراً وباطناً ، ولم ينظروا  
في حقائق ما جاءهم ، بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة  
وسعادة إنما كان أمراً خصّوا به ، أو خيراً سيق إليهم ، لظاهر قول  
أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ، وإن كان  
ذلك العمل لم يخالط سرائرهم ولم تصلح به ضمايرهم ، فأخذوا  
بتقاليد وعادات لم تدع في نفوسهم مجالاً لغيرها ، ولذلك لم

---

( ١ ) ، ص ١٦٨ ج ١ من نشر المنار

يتفكروا قط في كونهم أخرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من  
سلفهم ، لأن حفظ الموجود أيسر من إيجاد المفقود ، بل لم ييحيوا  
لأنفسهم فهم الكتاب الذى افتدى من قبلهم بما فيه من سموس  
العرفان ونجوم الفرقان ، لزعمهم أن فهمه لا يرتقى إليه إلا أفراد  
من رؤساء الدين يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا ، وبكتبهم إذا فقدوا ،  
فمنل هذا الفريق من الصنف المخدول فى فقدته لما كان عنده  
من نور الهداية الدينية ، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرّة ،  
وانطماس الآثار دونها عنده مل من استوقد ناراً ..

والوجه فى التمثيل : أن من يدعى الإيمان بكتاب نزل من  
عند ربه قد طلب بذلك الإيمان أن توفد له نار يهتدى بها فى  
النسبهات ، ويستضىء بها فى ظلمات الريب والمشكلات ، ويبصر  
على ضوئها ما قد يهجم عليه من مفترسة الأهواء والسهوات ،  
فلما أضاءت ما حوله بما أودعته من الهدى والرساد وكاد بالنظر  
فيها يمينى على هداية وسداد ، هجمت عليه من نفسه ظلمة  
التقليد الخبيث وعصب عينيه شيطان الغرور ، فذهب عنه ذلك  
النور وأطبق عليه جو الضلالة بل طفىء فيه نور الفطرة ،  
وتعطلت قوى السعور بما بين يديه ، فهم بمنزلة الأعشى الأصم  
الذى لا يبصر ولا يسمع .

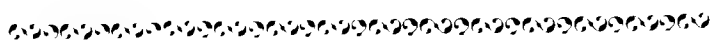


وأما الفريق الثانى : فقد ضرب الله له المثل فى قوله : أو كصيب من السماء • وهو الذى بقى له بصيص من النور ، فله نظرات ترمى إلى ما بين يديه من الهداية أحياناً ، ولعانى التنزيل لمعاناً يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة ، ويأتلق فى نظره الحين بعد الحين ، عندما تحركه الفطرة أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه ، ولكنه من التقاليد والبدع فى ظلمات حوالك ، ومن الخبط فيها على حال لا تخلو من المهالك ، وهو فى تحبطه يسمع نوارع الإنذار الإلهى ، ويبرق فى عينيه نور الهداية ، فإذا أضاء له ذلك البرق السماوى سار •• وإذا انصرف عنه بسببه الضلالات الغرارة فام وتخير ، لا يدرى أين يذهب !! ثم إنه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق كمن يضع أصبعيه فى أذنيه حتى لا يسمع إرساد المرشد ولا نصيح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقتله ، ومن صواعق النذر أن تهلكه •

هذا هو شأن فريقى هذا الصنف بما يسير إليه المثان إجمالاً •• » •

\* \* \*

وبعد أن عددت آيات سورة الحشر الصفات النفسية للذين



نافقوا ، وكشفت موقفهم العدائى من الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وإغراءهم اليهود على قتال المسلمين ، وبعد أن أبانت موقفهم السلبى إزاء نصره المؤمنين ، ودلّت على جبنهم وخورهم وتفرّق قلوبهم ورهبتهم من المسلمين مثلتهم - فى سوء عاقبتهم ومصيرهم - بكفار بدر الذين ذاقوا وبال أمرهم فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا : على يد المسلمين بالقتيل والتنكيل وفى الآخرة : بعذاب الله الأليم الشديد .

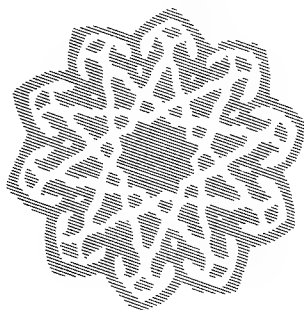
نم مثلت المنافقين فى خداعهم وإغرائهم اليهود على القتال ، وتنصلهم منهم بعد الهزيمة بالشیطان الذى يظل يبذل كل ما فى جعبته من إغراء للمرء حتى يكفرتم يتبرأ منه فى النهاية ، ويتركه يجتر حسرته وندامته .

( ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لنن أخرجكم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن فوثلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون [ ١٢ ] لنن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولنن فوثلوا لا ينصرونهم ، ولنن نصرهم ليولنّ الأدبار <sup>(١)</sup> ، ثم لا ينصرون [ ١٣ ] لأنتم أسد

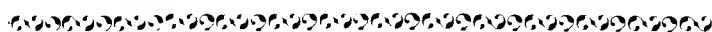
( ١ ) ليولن الأدبار : ليهزم من .



رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون [ ١٤ ]  
لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة ، أو من وراء جدر ،  
بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم  
لا يعقلون [ ١٥ ] كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال  
أمرهم <sup>(١)</sup> ولهم عذاب أليم [ ١٦ ] كمثل الشيطان إذ قال  
للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إني برئ منك إني أخاف الله رب  
العالمين [ ١٧ ] فكان عاقبتهما أنها في النار خالدين فيها وذلك  
جزاء الظالمين [ ١٨ ] •



( ١ ) وبال أمرهم : سو. عاقبتهم •



## المقلدون

التقليد : تعطيل لنعمة العقل ، وعقل لموهبة الإدراك !!  
والمقلدون الذين ألغوا مداركهم وأفهامهم ، فلم يتفكروا في  
خلق السموات والأرض ، ولم يتوصلوا ببحثهم واستقرائهم إلى  
الاعتقاد الجازم والإيمان المكين ، والذين صموا عن سماع دعوة  
الحق سماع تدبر وتفهم ، هؤلاء هم السليبيون مسلوبو المشيئة  
والتصرف ، الذين دعاهم داعى الله إلى ما أنزل الله فكان  
قصاراهم أن قالوا : لنا في آبائنا فدوة وأسوة ، فلن نحيد عن  
معتقداتهم ، ولن نخرج عن سننهم !!

هؤلاء المقلدون مثلهم القرآن بالسوائم والبهائم تطيع صيحات  
راعيها من غير تفكير في مدلولاتها الوضعية ، لا تفهم أوامره ،  
ولا تفقه نواهيه ولا تعقل صيحاته ونداءاته ، بل تسمع أصواتاً  
منه اعتادت عليها .. تدعى بصوت فتأتى وتقبل ، وتصرف  
بآخر فتدبر وتعود وفي ذلك يقول القرآن :

( ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق <sup>(١)</sup> بما لا يسمع إلا  
دعاءً ونداءً ، صمّ بكم عمى فهم لا يعقلون [ ١٧٢ ] ) .

( ١ ) . ينعق . بصوت على غنمه .



## تربية وتوجيه المسلمين

الشدائد محك الرجولة ومجال البطولة ، والتجارب بوتقة تصهر خبث النفس وتظهر الشخصية ناضجة مصقولة متكاملة ، والأحداث تربي العزائم الخائرة وتوجه النفسية الهشة الهامشية إلى مافيه تماسكها وصلابتها وصلاحياتها •

والمؤمنون الصادقون كانوا في بدء الدعوة الإسلامية قلة مستضعفين تتناوشهم الخطوب ، وترزعزع إيمانهم الحوادث ، ولاسيما حديثو العهد منهم بالإيمان • فاقتضت حكمة الله من أجل هذا أن تقدم هؤلاء المستضعفين وفوداً يستمدون منه القوة ، وزاداً يستعينون به على تمكين العقيدة وتثبيت مفاهيمها حتى تجدد في نفوسهم أرضاً خصبة تثبت فيها وتزهر •

من أجل هذا اتجهت بعض آيات القرآن إلى ضرب الأمثلة للمؤمنين ، تخبرهم أن الابتلاء ليس بمقصود عليهم وحدهم ، وأن المؤمنين السابقين أودوا في سبيل عقيدتهم ، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ونزل بساحتهم من العناء والإيذاء والمحن والفتن والبأساء والجهد ما كان فوق الطاقة والجهد ، وما بذلوا في سبيل

~~~~~


مدافعته ومكافحته الكثير من جهودهم وجهودهم وما زادهم ذلك كله إلا إيماناً فوق إيمانهم وتسليماً بسلامة جهادهم وأهدافهم : « الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً ، وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم • فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ^(١) « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » ^(٢) « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » ^(٣) .

« وليبتلى الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم » ^(٤) .

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء ^(٥) والضراء ^(٦) ، وزلزلوا ^(٧) ، حتى

(١) أول سورة العنكبوت •

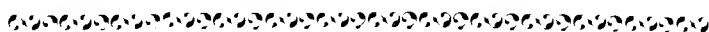
(٢) آية ١٤٣ من سورة آل عمران •

(٣) آية ١٨٧ من سورة آل عمران •

(٤) آية ١٥٤ من سورة آل عمران •

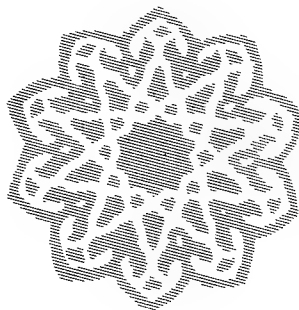
(٥) البأساء : شدة الفقر •

(٦) الضراء : المرض • (٧) زلزلوا : أزعجوا إزعاجاً شديداً •



يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب [٢١٥] .

آيات وأمثال من تربية وتوجيه تشدّ العزم وتصلّل الروح وتقوّى الإرادة ، وتقوّى النفس . . نفس المؤمن الذى علم أن ما يعانيه مؤمنوا اليوم لا يقاس بما قاساه المؤمنون السابقون ، وأن الابتلاء تمحيص نهايته فوز ، واختبار عاقبته صلاح وفلاح .
ولا جرم ، فالمؤمنون أصحاب رسالة وأهداف ، لذا كانت تبعاتهم أكثر ، ومسئولياتهم أخطر . والحفاظ على ذلك كله يستلزم المزيد من المكابدة والمجاهدة والمجادة والمغالبة .



القدرة على البعث

قضية البعث قضية قديمة جديدة .. لها أنصارها ولها خصومها في كل وقت وحين .. خصومها من هؤلاء الذين أنكروا قضية الإيمان ولم يعترفوا بالآلوهية ، من هؤلاء الطبيعيين والدهريين الذين قالوا : إنْ هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر !!

ومن هؤلاء الذين قالوا قديماً : « إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون »^(١) ومن هؤلاء الشيوعيين والوجوديين والماديين في عصرنا الحاضر ، الذين لا يعترفون إلا بالمادة ، ولا يحسون إلا وجودها ، والذين يخاصمون الروحية ويفتتون عليها ويتناولون على أنصارها وأهلها .

ومن هؤلاء الذين غرّتهم قوتهم وتقدمهم في ميدان العلم وغزو الفضاء فقالوا ، وهم يجوبون بصواريخهم وقذائفهم في دنيا السماء ، قالوا ساخرين مستكبرين مستكبرين : أين الله ؟!

(١) آية ١٦ من سورة الصافات .



وكان من الطبعي أن يشحذ القرآن أسلحته ليحارب بها المنكرين في هذا الميدان ، وأن يقدم من البراهين والأدلة والحجثيات ما يجلو هذه القضية ، وما يجعل الحكم فيها حاسماً قاطعاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يرتاب فيه إلا من ختم الله على قلبه وسمعه ، وغطى على بصره وبصيرته . وهذا مثل قرآني يتضمن حثية مادية مفحمة مقنعة ، ودليلاً ملموساً يناصر قضية البعث ويظهر دعوى النشور :

(أو كالذي مرّ على قرية ، وهي خاوية على عروشها ^(١)) ، قال : أنى ^(٢) يحيى هذه الله بعد موتها ، فأما الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ^(٣) وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ^(٤) ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير [٢٩]) .

(١) خاوية على عروشها : سافطة على سفوفها .

(٢) أنى : كيف .

(٣) لم يتسنه : لم يغير .

(٤) ننشزها : نركب بعضها فوق بعض .

ويعقب الترمذى على هذا المثل ^(١) فيقول : « أمر الله هو
الذى تحيرت نفسه أن ينظر إلى حمارة كيف أحياء الله ، فأراه بما
حضره ما غاب عنه » .

(وإذ قال إبراهيم : رب ، أرنى كيف تحيى الموتى ، قال :
أولم تؤمن ؟ قال : بلى ^(٢) ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ
أربعة من الطير فصرهن ^(٣) إليك ثم اجعل على كل جبل منهن
جزءاً ، ثم ادعهن ^(٤) يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم
[٢٦٠]) .

ويلحق الفخر الرازى على هذه القصة قائلاً : والغرض منها
ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل
السهولة .



(١) فى مخطوطه ص ٩٢٧ المجلد الثانى .

(٢) بلى : نعم .

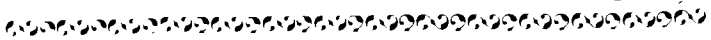
(٣) فصرهن : أملهن .

(٤) أدعهن : نادهن .

الإنفاق

القرآن يعلم حرص النفوس على المال وتكالبها على جمعه وله ، وسعيها في الحصول عليه بكافة الوسائل والسبل ، ويعلم أيضاً نسحها في الإنفاق على الغير وتقديرها في البذل وبخلها في العطاء في سبيل الخير ، فقدّم لها علاجاً نفسياً تبلور في أن النفقة في أوجه الخير والبر والصالح العام تضاعف يوم القيامة أضعافاً كثيرة ، وأن الإنفاق في سبيل الله هو قرض لربها الغني الكريم المحسن يكافئ عليه في الدنيا ويؤديه أضعافاً مضاعفة يوم الجزاء . فاستل بذلك من النفوس حرصها ، وطمانها عندما ضاعف لها الأجر الأخرى وأجزل لها العطاء يوم الجزاء ، ودفعها بذلك العوض المغري المجزى إلى البذل بسماحة وطيب خاطر وأريحية .

ووضع القرآن بهذه الأمثلة الإلهية الحاضرة على الإنفاق والحاجة على البذل أول لبنة في صرح التكامل الاجتماعي والتكافل الإنساني :



أ - الإنفاق في سبيل الله

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يساء والله واسع عليم [٢٦١] الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله هم لا يتبعون ما أنفقوا متاً ولا أذى ^(١) لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون [٢٦٢] قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم [٢٦٣]) .

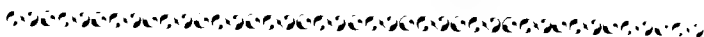
ب - الرياء يبطل ثواب العمل

(يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء ^(٢) الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان ^(٣) عليه تراب فأصابه وابل ^(٤) فتركه صلداً ^(٥)) (١) المن : نداد النعم على من أنعم عليه ، والأذى التطاول عليه بسبب ما أنعم عليه .

(٢) رئاء الناس : مرائياً الناس .

(٣) صفوان : حجر أملس . (٤) وابل : مطر غزير .

(٥) صلداً : أملس نضياً من التراب .



لا يقدرّون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين
[٢٦٤] ٠

الرياء مرض من أمراض المجتمع يدل على انهيار في
الشخصية وجبن في الأخلاق ، وبعد عن الوضوح وفقر في
السنجاعة الأدبية ، وطريق ملتو يسلكه كل متلون مخادع ليصل
بوساطته إلى منفعة ذاتية أو كسب شخصي حتى ولو أهدر
إنسانيته وأودى بكرامته وعزته وأنفته ٠

وتقاليدنا الإسلامية تحفظ على الأناسى كرامتهم وإنسانيته ،
وها هو ذا القرآن عندما أوصى بتقديم الصدقة إلى مستحقيها
أوصى في الوقت نفسه بأن يحافظ المتصدق على شعور المستحق
وإحساسه ، والإبقاء على كرامته وماء وجهه ، فلا تقدم الصدقة
إليه مشفوعة بمنّ ، أو مصحوبة بأذى عاجل أو آجل ٠٠ وإلاّ
بطل نوابها كما يبطل الرياء ثواب العمل ٠

جـ - الإنفاق المثالي

وقد صوّره المثل القرآني الآتي بأنه هو الوابل الذي يرتكز على
دعائم من الإخلاص والتقرب إلى الله ، وتنبيت النفس على

الإيمان ، كما صور أن هذا الإنفاق وإن جلّ أو قلّ فمثوبته جلى
وثوابه دائم •

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من
أنفسهم كمثل جنة ^(١) بربوة ^(٢) أصابها وابلٌ فأتت أكلها
ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ^(٣) والله بما تعملون بصير
• ([٢٦٥])

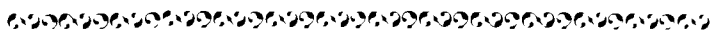
يقول صاحب المنار ^(٤) : « ووجه الشبه عندى أن المنفق
ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو فى إخلاصه وسخاء
نفسه ، وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر
العظيمة الخصب فى كثرة برّه وحسنه ، فهو يجود بقدر سعته ، فإن
أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل
أنفق منه بفدر ، فخيرته دائم وبرّه لا ينقطع ، لأن الباعث عليه
ذاتى • لا عرضى كأهل الرياء وأصحاب المنّ والإيذاء •
فالوابل والطلّ عبارة عن سعة الرزق وما دون السعة » •

(١) جنة : حديقة •

(٢) بربوة : بمكان مرتفع •

(٣) طلّ : مطر ضعيف •

(٤) ص ٦٨ ج ٣ من تفسير المنار •



د - عاقبة الرياء والإيذاء

سم تمضى الآية الشريفة بعد تبيان ذلك كله فتقول :

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار^(١) فيه نار فاحترفت ٠٠ [٢٦٦]) .

وفي تفسير ذلك المثل يقول الطبرى^(٢) : « إن صاحب الجنة (البستان) أصابه الكبر (التقدم فى السن) وله ذرية ضعفاء : صغار أطفال ، فأصاب الجنة إعصار فيه نار فاحترفت ، يعنى بذلك : أن جنته تلك أحرقتها الريح التى فيها النار فى حال حاجته إليها وضرورته إلى سمرتها بكبره وضعفه عن سمارتها .

وفى حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها ، فبقى لا شئ له ، أحوج ما كان إلى جنته وثارها بالآفة التى أصابتها من الإعصار الذى فيه النار .

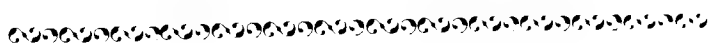
فكذلك المنفق ماله رثاء الناس أطفالاً الله نوره وأذهب بهاء عمله وأحبط أجره حتى لقيه وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله حين لا مستعقب له ولا إقالة من ذنوبه ولا توبة ، واضمحل عمله

(٢) ص ٥٤٣ ج ٥

(١) إعصار : ريح سديدة .

كما احترفت الجنة التي وصف - جلّ نأؤه - صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته أحوج ما كان إليها فبطلت منافعتها عنه .

وهذا المثل ضربه الله للمنفقين أموالهم رثاء الناس . . هذا مثل لنفقة الرياء إنه ينفق ما له يرائي الناس به فيذهب ماله وهو يرائي ، فلا يأجره الله فيه فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته وجدها قد أحرقتها الرياء فذهبت ، كما أنفق هذا الرجل على جنته حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته ، فلم يجد منها شيئاً ، فكذلك المنفق رياء !! سأل عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فيم ترون أنزلت : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب » ؟ فقالوا : الله أعلم . فغضب عمر . فقال : فولوا « نعلم » أو « لا نعلم » ! فقال ابن عباس : في نفسى منها شيء يا أمير المؤمنين فقال عمر : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل . قال عمر : أى عمل ؟ قال : لعمل !! فقال عمر : رجل غنى يعمل الحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها !!



ويكشف صاحب تفسير المنار عن وجه السبه في هذا المثل فيقول ^(١) : « أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرأى ، وقالوا إن المعنى أنه سيكون في يوم القيامة عند سدة الحاجة إلى ثواب نفعه النى رأى بها كذلك النسيخ الكبير الذى احترفت جنته الى لا معاش له سواها عندما كثر عياله الضعفاء وعجز عن العمل ، فلا يملك من ثوابها شيئاً ، ولا يفدر أن يكسب ما يغنيه عنه . وأقول إن المثل ينطبق أيضاً على من أبطل صدقته بالمن والأذى ، وأنه ليس خاصاً بالآخرة ، فإن باذل المال للفقراء ، وفي المصالح العامة يكون له من الجاه والمكانة عند الناس ما يسبه تلك الجنة التى وصفها المثل فى رونقها ومنافعها ، ويوسك أن يذهب مال هذا المنفق وتستند حاجته وتقصر يده حتى لا يكون له مرتزق إلا ما غرسته يده من جنته تلك ، فيحاول أن يجنى منها ، فيحول دون ذلك إعصار من المن والأذى ، أو من ظهور الرياء فيحرفها حتى تكون كالصريم لا تؤتى سمرتها ، ولا تسر رؤيتها ، كذلك تكون عاقبة أهل الرياء ، وذوى المن والايذاء ، ينبذهم الناس عند سدة حاجتهم إلى الناس » .

(١) ص ٧٠ ج ٣ .

والقرآن يسوق مثلاً لهؤلاء الذين أنكروا إنسانية عيسى ورسالته متعللين بأن خلقه لم يكن وفق السنن الطبيعية ، ففد خلق من غير أب • ويرد الله - سبحانه - عليهم في هذا المثل بأنه لا غرابة في ذلك فإن كان عيسى فد خلق من غير أب فإن آدم عليه السلام فد خلق من غير أب :

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم فأن له كن فيكون [٥٩]) •

يقول الطبرى^(١) : « •• إن الله عز وجل أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه صلى الله عليه وسلم على الوفد من نصارى نجران ، الذين حاجوه في عيسى ، وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له : ما سأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : عيسى ، تزعم أنه عبد الله !!

(١) ص ٤٦٨ من تفسيره •

فقال : هو عبد الله وروحه وكلمته • قالوا : لا ، ولكنه هو الله ،
 نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ، ثم خرج منها فأرانا قدرته
 وأمره ، فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب ؟ فأنزل الله عز
 وجل : (إن مثل عيسى عند الله) •

وسمع بعض المرءين الذين يعبدون الملائكة هذه الآية
 السالفة المتضمنة ذلك المثل السالف ، فرفعوا عقيرتهم مفاخرين
 فائلين : نحن أصح نظراً وأسلم عقيدة وأصوب اتجاهاً ومنطقاً من
 هؤلاء النصارى ، فبحن نعبد الملائكة ، أما هم فإنهم يعبدون
 بسرائر • فنزل قول الله تعالى في سورة الزخرف :

(ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ^(١)
 [٥٧] وقالوا آلهتنا خير أم هو ، ما ضربه لك إلا جدلاً ، بل
 هم قوم خصمون ^(٢) [٥٨] إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه
 مثلاً ^(٣) لبني إسرائيل [٥٩] ولو نساء لجعلنا منكم ملائكة في
 الأرض يخلفون [٦٠]) •

وفي تفصيل ذلك يقول الألوسي ^(٤) : « إن المرءين لما

(١) صدون : يضحون فرحاً •

(٢) خصمون : سددوا المناجدة • (٣) مثلاً : أمراً عجيباً •

(٤) ص ٩٤ ج ٢٥ من تفسيره روح المعاني •

سمعوا قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب» قالوا: نحن أهدي من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة .. فنزلت .. فالمثل ما في قوله تعالى : إن مثل عيسى .. الآية والضارب هو المولى تعالى شأنه أى : ولما بين الله سبحانه حالته العجيبة اخذه فومك ذريعة إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقاً بשרاً قد عبد ، فنحن أهدي ، حيث عبدنا ملائكة مطهرين مكرمين عليه .. وهذا هو الذى عنوه بفولهم : (أأهلنا خير أم هو) فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايضة باطل بباطل ، وأنهم فى اتخاذهم العبد المنعم عليه إلهاً مبطلون مثلكم فى اتخاذ الملائكة - وهم عباد مكرمون - ثم قال تعالى : (ولو نساء لجعلنا منكم ..) الآية ، دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله وأنه سبحانه قادر على أعجب من خلق عيسى عليه السلام ، وأنه لا فرق فى ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعاً . فلا يصلح القسمان للإلهية » .

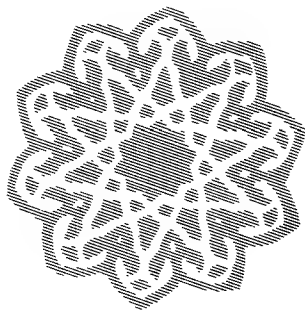


انفاق الكافرين

قد يغرى الله بعض الكافرين فيمد لهم من فضله ، ويمن عليهم من سيئه ، ويفىء من نعمه عليهم في الدنيا السيء الكثير . . . ويدلى الكافر الثرى بدلوه في مشروعات الخير والإنتاج ، ويعطى من ماله ما يسميه « قربات » فيسد خلة فقير ، أو يقلل عثرة محتاج ، أو يقيم منشأة ، أو يتسيد مؤسسة . . . تمد روافها فتفيض بالرزق على سواد عظيم من خلق الله . . . وقد يخدم الإنسانية بما يقدم إليها من مخترعات نافعة ، أو أدوية ناجعة . . . وهو مع ذلك مقيم على كفره سادر في جحوده ونكرانه ، فمثل نفقته هذه كمثل ريح فيها برد شديد أصابت زرع قوم عاصين ظالمين قد أملوا إدراكه ورجوا نفعه ، فأهلك الريح زرعهم بسبب عصيانهم وكفرهم وتجاوزهم حدود بارئهم ومخالفتهم أمره وإسراكهم به ، وتكذيبهم لرسله :

(إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون [١١٦] مثل

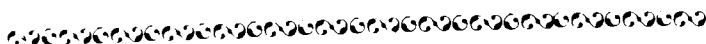
ماينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ (١) أصابت
 حرث (٢) قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ٠٠ [١١٧] .
 والمراد من هذا المثل - كما يقول العلامة أبو السعود في
 تفسيره (٣) : « المراد هو تشبيه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه
 بالكلية من غير أن يعود إليهم نفعٌ ما بحرث كفار ضربته صرٌّ
 فاستأصله ولم يبق لهم فيه منفعةٌ ما بوجه من الوجوه » .



(١) صر : برد سدبد .

(٢) حرث : زرع .

(٣) ص ٤٠٤ ج ١ .



المكذب بآيات الله

من
سورة
الاعراف

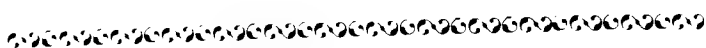
وهناك نمط من الكفر ، صاحبه عالم بآيات الله ، عارف مدلولاتها ، قادر على تبيانها بما أوتى من بلاغة في المنطق وبراعة في النطق وقوة في الحجة والإقناع .. إلا أنه انحرف فلم يعمل بمقتضى علمه وكفر بآيات ربه عندما انسلخ منها ولم يعمل بفهمها ، وعندما جحد نعمة العلم وأذهبها بعدم العمل فلا بدع أن ضعفت نفسيته ولم تصمد أمام الغزو الشيطاني ، وصار من الفاسدين المفسدين . ولو اختار لنفسه الرفعة والكمال الإيماني لرفعه الله بتلك الآيات إلى درجات من الطاعة والهداية ، ولكنه أعرض ونأى وركن إلى الأرض بميله إلى الأمور الأرضية الوضيعة ، لذا لم يوجهه الله إلى الحياة العلوية حياة التطبيق العملي المثالي لما علم وعرف حياة الروح التي سداها نور وضياء ولحمناها إسراق وصفاء ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهب أو تتركه يلهث .

يقول صاحب تفسير المنار^(١) : « .. واللهم : التنفس السديد مع إخراج اللسان . ويكون لغير الكلب من سدة النعب والإعياء أو العطش . وأما الكلب فيلهت في كل حال ، سواء أصابه ذلك أم لا ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تركته آمناً وادعاً ، وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حاله هذه ، وهى أخس أحواله وأقبحها . والمراد أنه كان من إخلاده إلى الأرض واتباع هواه في أسوأ حال ، خلافاً لما كان ينبغي من نعمة العيش وراحة البال ، فهو في همّ دائم مما شأنه أن يهتم به وما شأنه أن لا يهتم به من صفائر الأمور ، وخسائس السهوات ، كدأب عباد الأهواء وصغار الهمم : تراهم كاللاهت من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنون به ويحملون همه حقيراً لا يتعب ولا يعيى ، ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من سهواته وأهوائه ، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب سعة وفضى أرباً :

فما قضى أحد منها لبانته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا: ذلك الأمر البعيد النساء في الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين

(١) ص ٤٠٧ ج ٩ .



المستكبرين والمقلدين الجاهلين ، كذبوا ، لظنهم أن الإيمان بها يسلبهم ما يفخرون به من العزة والعظمة باتباعهم لغيرهم ، ويحيط من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلدوهم في ضلالهم ، ويحول دون تمتعهم بما يستهون من لذاتهم ؛ فلهذا الظن الباطل لم ينظروا في الآيات نظراً تفكر واستقلال وتبصر واستدلال ، بل نظروا إليها - لا فيها - من جهة واحدة : وهى أن اتباعها يحيط من أقدارهم ويعد اعترافاً بضلال سلفهم الذين يفخرون بهم ويحرمهم التمتع بحظوظهم وأهوائهم .

فكان مثلهم مثل الذى أوتى الآيات فانسلك منها ، وذلك لا يعيب الآيات وإنما يعيب أهل الأهواء الذين حرّمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها ، وكأين من إنسان حرم الانتفاع بمواهبه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات في العلم والعمل !! وكأين من إنسان استعمل حواسه في الضرّ وعقله وذكائه في السرّ !! وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فافحص القصص لعلهم يتفكرون : أفصص أيها الرسول فقص ذلك الرجل ، المشابهة حاله لحال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البيّنات في مبدأ أمره وغايته ومعناه وصورته ، رجاء أن

يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم ويصبح مثلهم على التفكير والتأمل ، فإذا هم تفكروا في ذلك تفكروا في المخرج منه ، ونظروا في الآيات وما فيها من البينات بعين العقل والبصيرة لا بعين الهوى والعداوة . ولا طريق لهدايتهم غير هذه .

والآية تدل على تعظيم شأن ضرب الأمثال في تأثير الكلام ، وكونه أقوى من سوق الدلائل والحجج المجردة .
ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا في الأمثال ، وفبحت صفتهم في الصفاب ، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الإغراض عن التفكير في الآيات ومن النظر إليها نظر العدو السانىء يظلمون أحداً ، وإنما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها ، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة».

وعن هذا كله تحدث الآيات التالية من سورة الأعراف فقالت :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ^(١) منها قلوبهم السيطان فكان من الغاوين [١٧٥] ولو سننا لرفعناه بها ولكنه

 (١) انسلخ : خرج .

أخلد^(١) إلى الأرض ، واتبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون [١٧٦] ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون [١٧٧] » •

ثم تمضى هذه الآيات كاسفة حال أهل النار ومآلهم فتقول :

« ولقد ذرأنا^(٢) لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، أولئك هم الغافلون [١٧٩] » •

تقرر هذه الآيات السريفة أن الله سبحانه خلق كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة ، فهم « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ولهم أعين لا يبصرون بها طرق الهداية ، ولهم آذان صرفوها عن سماع الحق سماع تدبر وتفكر « فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفندتهم من سوء ، إذ كانوا بآيات الله ينجحون » •

(١) أخلد إلى الأرض : مال إليها :

(٢) ذرأنا : خلقنا •

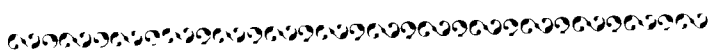
فلا جرم أن خلقهم الله وقوداً للنار وحطباً لجهنم ، وسبهم بالأنعام « وهى البهائم التى لا تفقه ما يقال لها ولا تفهم ما أبصرته لما يصلح ، ولما لا يصلح ولا تعقل بقلوبها الخير من الشر فتميز بينها ، فشبههم الله بها ، إذ كانوا لا يتذكرون ما يرون بأبصارهم من خججه ولا يتفكرون فيما يسمعون من أى كتابه ^(١) » . . . « فهم كالأنعام فى كونهم لا حظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم فى هذه الحياة الدنيا ، بل هم أضل سبيلاً من الأنعام ، لأن هذه لا تجنى على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية فى أكلها وشرها ونزواتها ، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التى تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية .

وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون فى كل ذلك إسرافاً يتولد منه أمراض كثيرة يقلُ فيهم من يسلم منها كلها» ^(٢) .

وكذلك يتحدث القرآن عنهم فى موضع آخر فى سورة المدثر

(١) ص ٢٨٠ من تفسير الطبرى ج ١٣ .

(٢) ص ٤٢٨ ج ٩ من تفسير المنار .

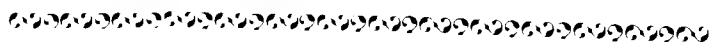


فيقول : « فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من مسورة » (١) .

وينحدث صاحب كتاب « من بلاغة القرآن » (٢) عن دفة ذلك التصوير القرآني فيقول : « ربما بدا أنه يكفى في تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير ، ولكنه في دفته لا يكتفى بذلك ، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة وإسراعهم في إبعاد أنفسهم عنها إسراعاً يمشون فيه على غير هدى فوصف الحمير بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب ، وتحثها عليه ، يزيد في هربها وفرارها أسد هصور يجرى خلفها ، فهي تتفرق في كل مكان ، وتجرى غير مهتدية في جريها ، أولاً ترى في صورة هذه الحمير وهي تجدد في هربها لا تلوى على سىء تبغى الفرار من أسد يجرى وراءها ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة ، فأرين أمام الدعوة لا يلوون على سىء سائرين على غير هدى ، ثم ألا تبعب فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية ؟ » .

(١) آية ٥١ المدر .

(٢) ص ١٩٩ من كتاب « من بلاغة القرآن » للدكتور أحمد بدوى .



تتفتح أعين الأناسى الصغيرة أول ما تفتح على دنياهم
المحيطة بهم ، فتسحرهم وتبههم وتعجبهم وتطربهم بما فيها من
نعيم ومناع ، وضياء وأضواء ..

وتسير بهم دنياهم فى كل مجال ومكان تعرض عليهم العديد
من مباحجها ومفاتنها .. ويخدع أهل الدنيا عندما يرون دنياهم
قد أخذت زخرفها وأزينت ..

ويركنون إليها مسلمين زمامهم لها ، مغررين أنفسهم فى
أوضارها وأوصالها ، بعد أن ظنوا أنهم قادرون عليها ، متحكمون
فيها بما فى جعبتهم من وسائل العلم الحديث ، وألوان التقدم
الحضارى ، وأنواع المخترعات والمكتشفات التى خذلت
المسافات ، وفرت البعيد وذلت العسير ، والتى جعلت مملكة
الأرض تكاد تتناول على مملكة السماء عندما غزت فضاءها ،
وحاولت جاهدة أن تكشف مساتيرها وأسرارها . وسرت إلى

فلوب أهل الدنيا نسوة تقدمهم العلمى المادى فهزّوا أعطافهم
سلفاً وكبراً وقمادوا فى غرورهم وخيلائهم ، وتخلّسوا فخالوا أن
دنياهم عجينة لدنة بين أصابعهم يسكلونها وفق منسيناتهم
ويكيفونها حسب رغباتهم ورغباتهم •

وسرعان ما يسقط فى أيديهم ، وتدور أعينهم فى محاجرها فزعاً
وزمناً ، وتقف قلوبهم رعباً ورهباً عندما يفجأهم القضاء ويحل
بهم الفناء . ويضع العدم - على غير موعد معهم - خاتمة كل
الحيوات . ويصبحون فى ضمير الغيب أنراً وذكراً ومثلاً وذكرى ،
كان لم يغنوا فى دنياهم عندما عجزت بما فيها ومن فيها عن أن
ترد عنهم غائلة قضاء أو تمنع ضربة قدر أو تبعد شبح فناء
أو وباء •

والقرآن فى أكثر من موضع يحذّر هذه العاقبة ، وينعى على أهل
الدنيا استكانتهم إليها وخدمتهم لها • وهو فى الوقت نفسه
لا يحارب الدنيا محاربة دائمة مطلقة فهى فى نظره مرغوبة مطلوبة
أيضاً : مرغوبة ، ليتخذها المرء مطية يصل بها إلى النعيم
الأخروى وسبيلاً يعبره ليعمر حياته الأخرى الخالدة ، ومزرعة
يبدّر فيها صالح العمل وصحيح العقيدة ، وينشر فى أرجائها
الهدى والسلام ، ليجنّى فى آخرته الجزاء الخالص والخير الخالد •

فالعزوف عن الدنيا جريمة في نظر الإسلام ، بدليل أن الله جلّ شأنه يقول : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » .. ويقول : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويقول الحسن البصري في كتابه « أدب الدنيا والدين » : « إن الله جعل الدنيا دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار فرار وجزاء ، فلزم كذلك أن يصرف الإنسان إلى ديناه حظاً من عنايته ، لأنه لا غنى عن التزوّد منها للآخرة ، ويقول الله مخاطباً نبيه عليه السلام : « فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » أى إذا فرغت من أمور الدنيا فانصب في عبادة ربك ، ويقول عليه السلام : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » كما قال : « نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة » .

وقد ضرب القرآن الكريم للدنيا أكثر من مثل ، وقد رسم في هذه الأمثلة بأسلوبه الفنى وظلاله ورسومه أكثر من لوحة تمثل قوة الدنيا الضعيفة ، وعلمها الجاهل ، وخلودها الفانى : لعل ذوى الفطر السليمة والفكر النيرة الصائبة يؤوبون إلى بارئهم ويفيتون إلى ظلال الحق فيعملون لأخراهم وأولاهم ، ولدينهم ودنياهم

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

« إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً^(١) كأن لم تغن بالأمس^(٢) كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون [٢٤] » من سورة يونس ..

وفى سورة الكهف مثل بان :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيأً^(٣) تذروه^(٤) الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرأً [٤٥] » .

وتسوق لنا سورة الحديد مثلاً للحياة إبان الدوافع التي تغرى أهل الدنيا بالاطمئنان إلى حيواتهم ، كما بين المثل سرعة زوال الدنيا وذهابها بعد أن سبها بالنبات الذي ارتفع والتف وطال

(١) حصيداً : محصوداً .

(٢) كأن لم تغن بالأمس : كأن لم يكن موجوداً .

(٣) هشيأً : مفتتأً .

(٤) تذروه : تغرفه .

وتطاول حتى أعجب الزارعين والرائين ، ثم سرعان ما اصفرّ بعد
نضرة ودّوى بعد قوة ، ولم يلبث أن تهشم وتحطم وتهوى
وتلاسى ..

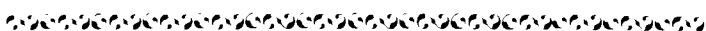
« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ
بينكم وتكاثرٌ فى الأموال كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج
فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً^(١) وفى الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ
من الله ورضوانٌ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور [٢٠] » .
يقول الألوسى فى تفسيره^(٢) : « وما الحياة الدنيا إلا متاع
الغرور » ، لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها ،
روى عن سعيد بن جبير : « الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن
طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب
الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة » .

وعن بلاغة هذه الأمثلة القرآنية تحدّث الدكتور أحمد بدوى
فقال^(٣) : « ولجأ القرآن إلى التسبيه يصوّر به فناء هذا العالم
الذى نراه مزدهراً أمامنا ، عامراً بألوان الجمال ، فيخيل إلينا

(١) حطاماً : فتاتاً .

(٢) ج ٢٧ ص ١٨٥ روح المعانى .

(٣) ص ٢٠٩ من كتاب من بلاغة القرآن .

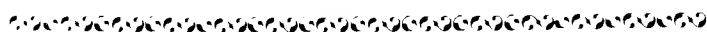


استمراره وخلوده ، فيجد القرآن في الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجاً نضراً ، يعجب رائيه ، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر ، ويصبح هشياً تذروه الرياح - يجد القرآن في ذلك سببها لهذه الحياة الدنيا ، ولقد أوجز القرآن مرة في هذا التشبيه وأطنب أخرى ، ليستقر معناه في النفس ، ويحدث أثره في القلب .

فقال مرة : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيأ تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً » .

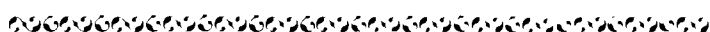
وقال مرة أخرى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً » وقال مرة ثالثة : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

ويقول الفيلسوف العلامة محمد فريد وجدى في كتابه « مقدمة



المصحف المفسر» تحت عنوان «الدنيا في نظر القرآن».. «مامن فيلسوف أو شاعر أو متأمل في الوجود إلا وحقر الدنيا واشتكى منها ، لتوالى آفاتها وتتابع حسراتها ، فلا لذة فيها إلا وهى مسوبة بآلم ، ولا راحة إلا وهى مصحوبة بتعب ، فلم تصفُ لملك ولا عالم ولا جاهل ، ولكن الناس مالكهم ومملوكهم وعالمهم وجاهلهم ومؤمنهم وكافرهم وإن اتحدوا في هذا الذم إلا أن طرائقهم فيها على غاية التنافض ، اتحدوا كلهم في المقدمة واختلفوا في النتيجة ، فمنهم المتكالبون عليها ، المتفانون في جمع حطامها . فكان ذلك التكالب مؤدياً إلى التقاطع والتنابد وتعمد السرور التى تزيد دنياهم نقصاً ، وحياتهم تنغيصاً ، وهو حال شديد التنافض ، الواقعون فيه أسد الناس فدحاً لأنفسهم ، وعجباً من حالهم ، ومن الناس من عرف للدنيا هذه الحال ، فانقطع عنها ونبذها ولم يعبأ منها إلا بما يسد الخلة ويقيم الأود ، ولكن إذا كان القسم الأول شديد التنافض ، فالثانى مفرط لا يلبث أن يقع تحت سيطرة القسم الأول ، لأن الدنيا لمن غلب ، ولا غلب إلا بمادة ..

جاء الإسلام والناس على هذين المبدئين ، فأتى للأولين من



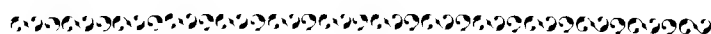
أنواع العبر بما يفنلح حب الدنيا من أنفس المتهورين فى حبها ، ويريم حفارتيها ونفصتها بمثل قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا مناع الغرور » .. « وما الحياة الدنيا إلا لعب وهو » .. « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزيت وطن أهلها أنهم فادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس » .. « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هسياً تذروه الرياح » •

أتى سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات ، ولكنه سفعتها بما يجب على أن يعمل في دنياه من سعى وراء الحصول على المادة ، حتى لا يقع أهل هذا الدين تحت أسر الأمم المادية ، فقال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وسمى المال خيراً مادام المقصود منه طلب الحق فقال تعالى :

« فإن ترك خيراً الوصية » وسماه فضلاً فقال تعالى : « فانتسروا فى الأرض وابغوا من فضل الله » .. والمال لم يكن خيراً وفضلاً من الله إلا لأنه مكتسب من حلّ ، لا مأخوذ بقطع رحم ، ولا بمنافسة تجرّ إلى خراب •

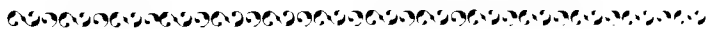
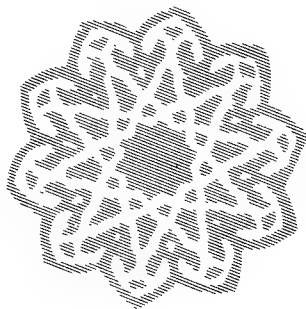
بهذه الحكمة العالية أسرب القرآن نفوس أهله خصلين

سامنين :



أولاهما ، ترك الدنيا لعسافها ، وتانيتهما : أخذ ما يقيمون به
أود حياتهم منها ، ويحميهم من الوقوع في أسر عبادها •

ولا نرى ديناً من الأديان حل هذه المسألة على هذا النحو ،
وعد أيّد المسلمون هذه الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم ،
وأسسوا على قاعدته مدينة فاضلة قامت على أعدل صرط
الفضيلة حتى قال الله فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت
للناس » •



المكذّبون والمصدّقون

من
سورة
هود

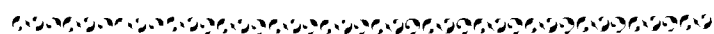
الأعمى لا يبصر الطريق ...

والأصم لا يسمع الدعاء ، ولا يعى النداء .. يضل من قدميه
الطريق ، فيتيه في مهمه ويسير في سحاب ومسارب تبعد به عن
الهدف المرجوّ والغرض الأسمى ..

وفائد البصر إذا حرم القائد الملهم والموجه المستنير والمرشد
الهادى الأمين تنكب الجادّه ، وحاد عن السبيل ..

كذلك الكافر الذى نضا عنه يوب الإيمان ، وأزال عن عاتقه
تحمل التكاليف الشرعية الحقة ، والذى آثر الغواية والضلال ،
فأصمّ أذنيه عن سماع دعوة الله وابتعد بقلبه عن نور الله ، فلم
يبصر الحق . فمثله كمثل الأعمى .. الأصم !!

أما المؤمن الذى أسرب قلبه حبّ الله ، وتحمل تعاليم مولاه ،
ونسط لها وانفعل بها وعاسها ، منفذاً الأوامر مجتنباً النواهى .. ولم
يكن سامعاً فحسب ، بل بالغ فى سمعه .. وبالف فى بصره ، حتى

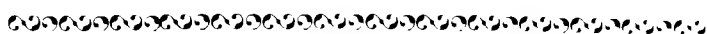


أبصر المحجة واضحة والمعالم منيرة فسار فيها يحفه نور من ربه ،
وتوجهه هداية مولاه نحو الحق ، والله هو الحق المبين ..
وهذا المؤمن مثله ، في تحرّيه الصواب وسماحه داعي السماء ،
مثل السميع البصير .. وما كان للسميع البصير أن ينساوى
بالأعشى الأصم .. !!

فتنان بين الفريقين .. شان بين الموت والحياة .. والنور
والظلمة .. والكفر والإيمان « أقمن سرح الله صدره للإسلام فهو
على نور من ربه » كمن هو سادر في غيه وعمايته ! « أقمن يتقى
بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » كمن هو آمن لا يعبريه مكروه
يومئذ ولا يحتاج إلى تقية ؟ « أم من هوفات آناء الليل ساجداً
أو قائماً تحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » كاللاهى اللادينى
المسنهر المارق ؟

« أو من كان ميئاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس
كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » .. « قل هل ينسوى
الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ ..

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة هود ممناً حالتي المكذبين
والمؤمنين مفرراً عدم تساويهما موجباً الخسارة يوم الدين للعصاة
الظالمين ، والخلود في النعيم لصالح المؤمنين :



« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أولئك يعرضون على ربهم ويمول الأسهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين [١٨] الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون [١٩] أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون [٢٠] أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون [٢١] لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون [٢٢] إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات واختبوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون [٢٣] مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون [٢٤] » .

نم ضرب الله مثلاً للمسرك : فسببه بالعبد يتولى أمره شركاء منساكسون ، لكل منهم رغبة تخالف رغبة الآخر ، واتجاه يتعارض مع اتجاه الآخرين ، فلا غرو أن تورّع قلب العبد وتستنّت نفسه في التوفيق بين هاتيك الرغبات المتباينة ..

وضرب مثلاً للمؤمن الموحد بالرجل الذي لا يلي أمره إلا شخص واحد فحسب .. لا شركاء .. ولا سرقة .. ولا مساحنة

~~~~~

ولا مساكسة ، ولا أغراض منباينة أو أهواء متعددة . لا يخضع إلا  
لواحد فلا تحير ولا اضطراب ولا بلبلة ولا قلق ..

« ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء منساكسون<sup>(١)</sup> ورجلاً  
سليماً<sup>(٢)</sup> لرجل هل يستويان مثلاً ، الحمد لله ، بل أكثرهم  
لا يعلمون [٢٩] »<sup>(٣)</sup> .

والعبد مسلوب الإرادة والحرية ، مسلون التصرف والملكية ،  
معطل القوى ، تابع خاضع لسيده ، كسقط المناع لا حول له ولا  
طو . ذلك العبد المملوك الرقيق لا ينساوى بالحر ولا يقارن  
بكامل الأهلية طبق الصرف فم منحه ربه من رزق حسن ،  
وما أغدق عليه من خير .

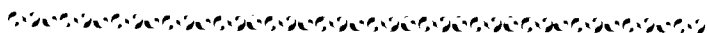
وكذلك الكافر الذي عطل تفكيره فسيرته أهواء أوليائه ..  
والذي خضع لعنفداته الفاسدة البالية ولماليده العفنة المورثة  
فخسب على إرادته وطبع على عقله ، ورأس على قلبه  
فوجهه وفق هواها وأهوائها .

---

( ١ ) منساكسون : مختلفون .

( ٢ ) سليماً : خالصاً .

( ٣ ) من سورة الزمر .



ذلك الكافر لا يتساوى بالمؤمن المفكر القوى بنصر الله ،  
الغنى بعقيدته الصحيحة ، وبما أنعم الله عليه من خير وبر ، وبما  
أفاد عليه من رزق وراه .

والأبكم الأخرس الذى ماتت فيه حاسة السمع والنطق ،  
وتعطلت قواه العقلية فغدا مبتور المنفعة ضيق العطن ضحل  
الفكير ، وأصبح عالة على ولي أمره أينما يوجهه لا يأتى بخير ،  
فهو عديم النفع ، ضائع النجاح ..

لا يسوى ذلك الفاشل المخفق برجل كامل العقلية ذى فهم  
ناضج وإدراك سليم ، وكفاية وعدالة واستقامة .

فالكافر المشرك كالعبد الأبكم الأعمى ..

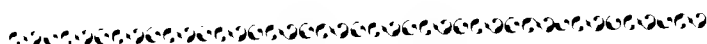
والمؤمن الموحد كالحر العاقل الرشيد ..

وبين الفريقين ما بينهما من بعيد الفرو وشاسع البون ..

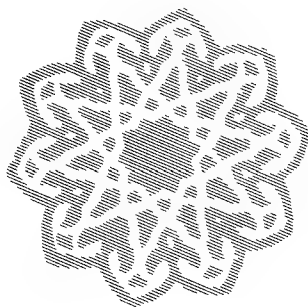
وعن ذلك نتحدث أمثلة آيات سورة النحل التى تقول :

« ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شئ<sup>(١)</sup> ، ومن  
رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ،

( ١ ) عاجز عن الكسب والتصرف .



الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون [٧٥] وضرب الله مثلاً رجلين :  
أحدهما أبكم<sup>(١)</sup> لا يفدر على شيء ، وهو كل<sup>(٢)</sup> على مولاه أينما  
يُوجَّهه لا يأت بخير ، هل ينسوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو  
على صراط<sup>(٣)</sup> مستقيم [ ٧٦ ] » .

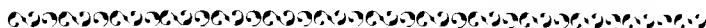



---

( ١ ) أبكم : أخرس .

( ٢ ) كل : غالة على غيره لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه .

( ٣ ) صراط : طريق .



الناس في حياتهم الدنيا يكافحون وينافحون ، يبغون من مسعاهم حياة أفضل وأعلى ، ومستوى أرفع وأنفع ، وكذلك المؤمنون المتقون يكافحون أهواءهم وسهواتهم حتى يمكنوا في نفوسهم لعقيدتهم .. وحتى يرضى عنهم ربهم ، ويختم بالصالح من الأعمال حياتهم ، ويوفيههم يوم الجزاء أجورهم . مصداقاً لقول الرسول صلوات الله وتسلياته عليه : « ألم تر أن العمال يعملون ، فإذا فرغوا من أعمالهم وفؤا أجورهم ؟ » •

لكل أجير أجر ، ولكل عمل جزاء من بواب أو عقاب أو عتاب ، ولكل عبادة حقة مثوبة وحسن مآب « إن للمتقين لحسن مآب : جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وسراب » •

وهناك فلة قليلة استقلت في جنب الله ما قدمته من صالح العمل وخالص العبادة ، معتقدة أن ما تقدمه في سبيل عبادة الله



لا يفى ببعض أنعم الله ، فجدوا وجالدوا حتى بلغوا - بعد طول  
معاناة ومجاهدة - درجة الإحسان في القول والعمل والعبادة  
والنقوى ، فاستنارت بصائرهم ، وخلصت قلوبهم ، وصفت  
أرواحهم وسمت أفئدتهم وتوصلت إلى الحق ، وعبدت الله  
لا رغبة في ثوابه ولا رهبة من عقابه ، وإنما عبدته لذاته ،  
لا لشيء إلا لشيء واحد فحسب وهو أنه الرب الحقيق بالعبادة ،  
كما كانت تقول رابعة العدوية •

وفي الجنة نعيم عجيب .. فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن  
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولكي يقرب القرآن بعض  
متاعها لبعض النفوس التي لا تؤمن إلا بالمحسوس أبان في كثير  
من آياته كثيراً من تلك الأجواء الإلهية التي يعيشها أهل الجنة :  
« هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون » .. « لا يرون  
فيها تمسأً ولا زمهريراً » ، « ودانية عليهم ظلالها » ..  
« يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تسنيه  
الأنفوس وتلذ الأعين » ، « يحلون فيها من أساور من ذهب ،  
ويلبسون لباساً خضراً من سندس واستبرق » ، « متكئين على  
فرس بطائنهما من استبرق » ، « تعرف في وجههم نظرة  
النعيم » ، « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر

متقابلين » ، « تجرى من تحتهم الأنهار » ، « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » •

أجواء مفعمة بالغبطة والرضا ، والمنافع والمتع ، ومع هذه المتع الحسية التى صورها القرآن متع أخرى معنوية من رضا نفسى وسرور برضوان الله ، ونيل مغفرته ، وتلك لذة روحية أسمى من النعيم المحسوس •

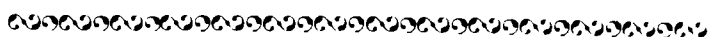
وإلى هذا الرضا والرضوان أشار القرآن عندما قال : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » •

نعيم كبير وفوز عظيم وملك كبير وخلود دائم تلك هى الجنة كما وصفها القرآن . وقد رسم القرآن - فى بعض سوره - صوراً محسوسة ، وصفت الجنة وأنهارها الجارية ومياهها المنسابة المتنوعة بين ماء حلو ولبن خالص وخمر سهى وعسل صاف •

« مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن <sup>(١)</sup> »

---

( ١ ) غير آسن : غير متغير طعمه •



وأَنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذَّة (١) للساكرين ،  
وأَنهار من غسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من  
ربهم [١٥] » .. من سورة محمد •

« مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ،  
أكلها (٢) دائم وظلها ، تلك عقبى (٣) الذين اتقوا وعقبى  
الكافرين النار [٣٥] » .. من سورة الرعد •

وبهذه الأمثلة التى قدمتها هذه الآيات يرعى القرآن الجانب  
الغريزى فى الإنسان وهو الذى يدفعه إلى تشدان المادة والتأس  
اللذة •

ويرعى كذلك الجانب الروحى الذى يهيم بالمغفرة ويشغف  
بالرضوان •

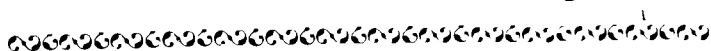


---

( ١ ) لذة : لذبة •

( ٢ ) أكلها : مرها •

( ٣ ) عقبى : عاقبة •



## الحق والباطل

« إن الله سبحانه وتعالى ضرب مثل الحق في بباته وبقائه بالماء الذي ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية في قدر حاجة الناس ، ويمكث بعضه في الأرض لمصلحتهم ، وبالمعادن التي ينتفع بها في صنع الحلى والأدوات من حيث دوامها ونفعها • وشبه الباطل في عدم ثباته وبقائه بزبد الماء « الريم » وزبد المعادن يهيج ثم يضمحل ويتلاشى <sup>(١)</sup> » •

ومثلُ الحق والباطل تقدمه لنا هذه الآيات من سورة الرعد :  
« أنزل من السماء ماء فسالت أودية <sup>(٢)</sup> بقدرها فاحتمل السيل زبداً <sup>(٣)</sup> رابياً <sup>(٤)</sup> ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء <sup>(٥)</sup> وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال [ ١٧ ] » •

( ١ ) ص ٨٥ من كتاب العظات الدينية في الأمثال القرآنية والعربية •

( ٢ ) أودية : جمع واد وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء فيه بكرة •

( ٣ ) الزبد : الفياض البيضاء التي توجد عند غليان السوائل •

( ٤ ) رابياً : عالياً

( ٥ ) جفاء : الجفاء ما يرمى به المدر من الغناء •



ويقول الحكيم الترمذى<sup>(١)</sup> : « .. ضرب الله مثلاً ليين الحق من الباطل فقال : أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها . فالحق مثل الماء الذى جرى فى الأودية ، فسالت أودية بقدرها : أى اختلط الحق بالباطل ، لأن النفس جاءت بأباطيلها ومنها وشهواتها التى هى إلى فناء فتمنتها فاغتر بها القلب . والحق لا يفنى ولا يبلى .

فقوله : أنزل من السماء ماءً : أى القرآن ، شبه القرآن بالماء : لأن فيه منفعة الدين من الأحكام والسرائع ، كما أن فى المطر منفعة الدنيا .

ثم شبه القلوب بالأودية ، لأنه وجد النور فى القلب منفذاً ومجازاً كما وجد الماء فى هذه الأودية منفذاً ومجازاً .

ثم شبه القلوب بالسيل . وسيل الباطل بالزبد الذى يعلو فوق الماء ، فكل قلب لم يتفكر ولم يعتبر ولم يرغب فى الحق خذله الله تعالى ووجد الظلمة والهوى فى قلبه منفذاً ومجازاً ، كما أن السيل وجد فى الأودية منفذاً ومجازاً ، فلما خذل هذا القلب احتل الباطل كما احتل السيل الزبد الرابى .

---

( ١ ) ص ٩٣٣ من مخطوطه .



وإذا وجد القلب التوفيق واعتبر احتمال الحق كما انتفع الناس  
من الماء الصافى . ثم وصف الحق والباطل لصاحبها فقال : فأما  
الزبد فيذهب جفاء ، يعنى : تذهب منفعته ، كذا الباطل تذهب  
منفعته لصاحبه فى الدنيا والآخرة .

أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض - وهو الماء الصافى -  
كذلك الحق : شبه الحق بالماء الصافى لأنه تبقى منفعته لصاحبه  
فى الدنيا والآخرة كما يبقى الماء لمن أخذه . . . »

ويقول فريد وجدى - فى تفسيره : « أنزل الله من السماء ماءً  
فسالت وديان بمقدارها الذى يعلم الله أنه يكفيها ، فاحتمل  
السيل زبدًا طافياً على وجه الماء ، وللمعادن التى توقدون عليها  
فى النار طلباً لأن تصنعوا منها حلياً ومناجاً كالأوانى ، زبدٌ كزبد  
الماء ، فأما هذا الزبد فيذهب غير مهتم به لحقارته ..

وأما ما ينفع الناس كالماء وخلاصة المعادن فيبقى فى  
الأرض .

كذلك يضرب الله الأمثال لإيضاح الشبهات ، جعل الله  
تعالى مثل الباطل كمثّل الزبد يتكوّن ثم يضمحل ، وجعل مثل  
الحق كمثّل الماء والمعادن التى تنفع الناس وتمكث فى الأرض . . . »

~~~~~

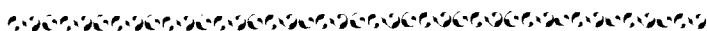
رماد هشّ أسود حطام نار خبت وهمدت ..

ويوم عاصف عابس فد اكفهر وجهه وتكدّر جوّه ..

وريح قاصفة تدوّى وتزجر وتدمر وتدمدم ..

وتتن الريح وتتر في ذلك اليوم العاصف ، وتثور وتفور ، وتلفح وجه الأرض فتقتلع النجم من أصوله وجذوره ، وتهز الأجسام التي تلجأ إلى حمى وملاذ ، وتقذى العيون بما تثيره من حصى وغبار وفتام .. ثم تلتف الريح حول نفسها في قوة وعنف تعصر فريستها وتهصر عودها وتقذف بأسلائها حيث تشاء .. ثم تتطاول الريح وترتفع ، وتصفع ذرى النخيل والأشجار التي ما تلبث أن تحنى لها هاماتها استسلاماً وخضوعاً .

وما كان للرماد الهشّ أن يقوى على الصمود في هذه الأجواء المتقلبة !! وماذا تجدى مقاومته - إن كانت له مقاومة - أمام قوى الرياح العاتية العارمة !!؟



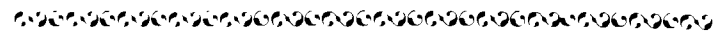
ومبـل أن يسكن الجوّ وتسكت العاصفة يتحلل الرماد وتفتت
ذراته ويصبح لا سىء فى دنيا العدم •
وأعمال الكافرين ، مهما جلت وكثرت ، كهذا الرماد الذى
انعدم وتلاسى فى جوف الريح الهادرة •
وهذه اللوحة الإلهية ترسمها لنا آيات من سورة إبراهيم عندما
تقول :

«مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى
يوم عاصف^(١) لا يقدرون مما كسبوا على سىء ذلك هو الضلال
البعيد [١٨] » •

» ^(٢) وتسيبهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة ، أنظر
إليه تجد فى السراب ، وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعاً
- فيغرمهم مرآها ، ويمضون إلى السراب يظنونه ماء ، فيسعون
إليه ، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن
تملاً الخيبة قلوبهم حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد فلا يجدون
شيئاً مما كانوا يؤملون . إنه يجد فى السراب صورة قوية توضّح
أعمال الفكرة تظن مجدية نافعة - وما هى بشىء فيقول :

(١) العصف : استداد الريح •

(٢) ص ١٩٦ من كتاب بلاغة القرآن •



« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ^(١) يحسبه الظّمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ^(٢) .

« ^(٣) ومن النظر إلى الفكرة من عدة زوايا « نجد القرآن ، حيناً ينظر إلى أعمال الكافرين من ناحية أنها لا أثر لها ولا نتيجة، فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق لا يقوى على البقاء أمام ريح شديدة لا تهدأ حتى تبدأ لأنها في يوم عاصف ، ألا ترى هذه الريح كفيلة بتبديد ذرات هذا الغبار شذر مذر ، وأنها لا تبقى عليه ولا تذر ، كذلك أعمال الكافرين ، لا تلبث أن تهبّ عليها ريح الكفر حتى تبدها ولا تبقى عليها . وللتعبير عن ذلك جاء قوله سبحانه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء .. » .

وحيثما ينظر إليها من ناحية أنها تغر أصحابها فيظنونها نافعة لهم مجدية عليهم ، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئاً ، ألا ترى في السراب هذا الأمل المطمع ذا النهاية المؤيسة ، ولأداء

(١) بقيعة : بأرض مستوية .

(٢) آية ٤٠ سورة النور .

(٣) ص ٢٠٢ من كتاب بلاغة القرآن .



هذا المعنى قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ،
يحسبه الظّمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » •

وحينا ينظر إليها من ناحية ما يلمّ بصاحبها من اضطراب
وفزع عندما يجد آماله في أعماله قد انهارت ، ألا تظلم الدنيا أمام
عينيه ويتزلزل كيانه كهذا الذى اكتنفه الظلام فى بحر قد تلاطمت
أمواجه ، وأطبقت ظلمة السحاب على ظلمة الأمواج ألا يشعر
هذا الرجل بمصيره اليائس وهلاكه المحتوم ، ألا يصوّر لك ذلك
صورة هؤلاء الكفار عندما يحيئون إلى أعمالهم فلا يجدون لها ثواباً
ولا نفعاً ، ولتصوير ذلك جاء فى قوله سبحانه : « أو كظلمات فى
بحر لحيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات
بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل
الله له نوراً فما له من نور » •

ويقول الأستاذ سيد قطب^(١) : « ومشهد الرماد تشتد به
الريح فى يوم عاصف مشهود ومعهود ، يجسم به السياق معنى
ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء
منها ولا الانتفاع به أصلاً ، يجسمه فى هذا المشهد العاصف

(١) ص ٧٥ ج ١٣ فى ظلال القرآن •

المتحرك ، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني
المجرد عن ضياع الأعمال وزهاها بدداً .

هذا المشهد ينطوى على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار ،
فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان ولا تمسكها العروة
الوثقى التي تصل العمل بالبائع ، وتصل الباعث بالله مفككة
كالهباء والرماد لا قوام لها ولا نظام ، فليس المعول عليه هو
العمل ، ولكن باعث العمل ؛ فالعمل حركة آلية لا يفرق فيها
الإنسان عن الآلة إلا بالبائع والقصد والغاية .. وهكذا يلتقى
المشهد المصوّر مع الحقيقة العميقة وهو يؤدى المعنى فى أسلوب
مشوّق موح مؤثر ، يلتقى معها التعقيب : « ذلك هو الضلال
البعيد » فهو تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير فى يوم
عاصف .. إلى بعيد » .

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى
إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع
الحساب [٣٩] أو كظلمات فى بحر لجى^(١) يغشاه^(٢) موج من
فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج

(١) لجى : عميق .

(٢) يغشاه : يغطيه .

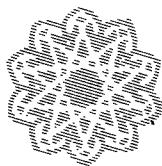


يده لم يكدرها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور [٤٠] » .

« والتعبير يرسم لحال الكافرين^(١) ومآلهم مشهدين عجبين حافلين بالحركة والحياة : في المشهد الأول يرسم أعمال الكافرين كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة يلتهم التماعاً كاذباً فيتبعه صاحبه الظامىء وهو يتوقع الرى غافلاً عما ينتظره هناك . وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة ، فهذا السائر وراء السراب الظامىء الذى يتوقع الشراب الغافل عما ينتظره هنا .. يصل فلا يجد ماءً يرويه إنما يجد المفاجأة المذهلة التى لم تخطر له على بال ، المرعبة التى تقطع الأوصال وتورث الخبال « ووجد الله عنده » الله الذى كفر به وجحده وخاصمه وعاداه وجده هناك ينتظره .. ولو وجد فى هذه المفاجأة خصماً له من بنى البشر لرّوعه وهو ذاهل غافل على غير استعداد ، فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار !! « فوفاه حسابه » هكذا فى سرعة عاجلة تتنافس مع البغته والفجاءة و « الله سريع الحساب » تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع . وفى المشهد الثانى تطبق الظلمة بعد الالتعاع

(١) من كتاب فى ظلال القرآن .

الكاذب ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجى موج من فوقه
 موج من فوقه سحب وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ،
 حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام .
 إن الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون ،
 وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى . ومخافة لا أمن
 فيها ولا قرار ، « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ونور
 الله هدى في القلب ، وتفتح في البصيرة واتصال في الفطرة
 بنواميس الله في السموات والأرض والتقاء بها على الله نور
 السموات والأرض ، فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة
 لا انكشاف لها وفي مخافة لا أمن فيها وفي ضلال لا رجعة منه .
 ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب ، لأنه
 لا عمل بغير عقيدة ولا صلاح بغير إيمان » .



دعاء الكافر

الدعاء صلة روحية بين العبد وبارئه ، واتجاهاً إلى الرب
القادر ، واستعانة بالمولى العزيز ، وابتهاال من المخلوق الضعيف
إلى الخالق القويّ يرجوه المغفرة والعفو، ويطلب منه الرحمة
والنصر ، ويسأله التوفيق والسداد •

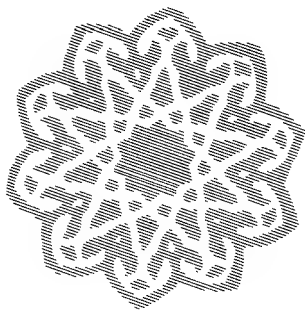
ويصعد الدعاء الحارّ يحمل ضراعة المؤمن .. ويحمل في
الوقت نفسه دلائل الايمان ودلائل العبودية ودلائل الخضوع
والانقياد •

الايمان فطب الرحي ، وركيزة الاستجابة ، ومن تعرّى عن
الايمان وكفر بالألوهية والعبودية فمن يدعو؟ وأنى يستجاب
له ؟!!

هو إن دعا فإنما يدعو صنماً لا يضر ولا ينفع أو حجراً لا يسمع
ولا يشفع .. وإن جأر بطلب فإنما يتوجه به إلى ضعيف لا يملك
من أمره شيئاً ، فضلاً عن أن يتصرف في أمور الآخرين •
يدعوا أوهاماً أو أوناناً من دون الله ، فكيف يستجيب لدعائه

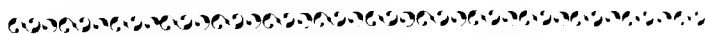
الله ؟ فلا بدع أن كان دعاء الكافرين في ضلال ، ولا عجب إذ كان عمل الكافر ضياعاً وضلالاً أن يكون دعاؤه كذلك هباءً وخسراناً . وقد سجل الفرقان الحكيم ذلك عندما قال في سورة الرعد : « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ومثلت آيات من هذه السورة الكريمة عدم جدوى دعاء الكافر عندما قالت :

« له دعوة الحق ^(١) والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط ^(٢) كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغة وما دعاء الكافرين إلا في ضلال [١٤] » .



(١) له دعوة الحق : إنه وحده الذى يستحق أن يدعى .

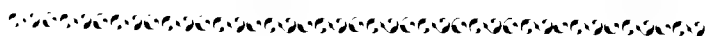
(٢) كباسط : كعاد .



الخبيث .. والطيب

قد تتكاف على الحق سحب الباطل وأستاره فتحجبه إلى حين !! وقد ينوء الخير أحياناً تحت لطحات السرّ !! وقد يتواري الطيب عند سورة الخبيث وتطاوله ، وقد يضعف صوت الحق أو يهن بين هزيم الباطل وزجرة الظلم وهدير الغنم ودوى الألفك ..

وتظن الأوهام أن دولة الحق قد دالت ، وسطوته قد زالت ، إلا فلة فليلة من صادفى المؤمنين تتمسك بمسكة من أمل وأناة من رجاء تعمرفلوهم فتثبتهم أمام الأنواء والأعاصير ويُزهى الباطل بغنمه وجبروته ، ويهيج الخبيث فيعيث في الأرض جوراً وخسراناً .. ويعتكر الأفق .. وتتلبد الغيوم .. وتتكاف الظلمات .. ومن خلال طبقات الظلام ينبثق النور ويزغ الضياء ويتكسف السناء ، ثم يتجمع الحق ويتكامل ويشرق بإشعاعاته على أمواج الباطل فينسل فواها ، ويوقف تيارها ويعدل مجراها .. ويتحلل الجليد وتذوب طبقاته المتراكبة ، وتنقشع السحب وتبتد الغيوم ويزغ الفجر .. الفجر الصادق على المؤمنين الصادقين .



هذه المعركة الأبدية بين الخبيث والطيب .. بين الشر والخير ..
بين الوهم والحقيقة .. هذه المعركة في قوتها وإبانها ، وفي نتائجها
وخواتيمها ، تصوّرناها لنا آيات من سورة إبراهيم تقول :

« ألم تركيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كنسجرة طيبة أصلها
ثابت وفرعها^(١) في السماء [٢٤] تؤتى أكلها^(٢) كل حين بإذن
ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون [٢٥] ومثل
كلمة خبيثة كنسجرة خبيثة اجتثت^(٣) من فوق الأرض ما لها من
قرار^(٤) [٢٦] يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة
الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء
[٢٧] » .

« إن الكلمة الطيبة^(٥) - دعوة كانت أو حركة أو عملاً -
كالشجرة الطيبة نابتة سامقة مثمرة .. نابتة لا تززعها الأعاصير
ولا تعصف بها رياح الباطل ، ولا تقوى عليها معاول الطغيان ..

(١) فرعها : أغلاها

(٢) أكلها : بارها .

(٣) اجتث : قطعت .

(٤) قرار : استقرار .

(٥) ص ١٠٠ ج ١٣ من كتاب في ظلال القرآن .

وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان .. سامقة متعالية تطل على الشر والظلم والطغيان من عل .. وإن خيل إلى البعض أحياناً أن الشر يزعمهما في الفضاء ، ثمرة لا ينقطع ثمرها لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنأ بعد آن ..

وإن الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة .. قد تهيج وتتعالى وتشابك ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ، ولكنها تظل نافثة هشة ، وتظل جذورها في التربة قريبة ؛ حتى لكانها على وجه الأرض .. وماهى إلا فترة ، ثم تجث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء .

ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع ، إنما هو الواقع في الحياة ، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان .

والخير الأصيل لا يموت ولا يذوى ، مهما زحمة الشر وأخذ عليه الطريق ..

والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس

به - فقلما يوجد الشر الخالص - وعندما يستهلك ما يلبسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال . إن الخير بخير .. !! وإن الشر بشر .. !! « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » فهي أمثال مصداقها واقع في الأرض ، ولكن الناس كثيراً ما ينسونه في زحمة الحياة !! وفي ظل الشجرة الثابتة التي يشارك التعبير في تصوير معنى الثبات وجوه في رسمها : أصلها ثابت مستقر في الأرض ، وفرعها ساقم ذاهب في الفضاء على مدّ البصر ، فائم أمام العين يوحى بالقوة والثبات ..

وفي ظل الشجرة الثابتة مثلاً للكلمة الطيبة « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » •

وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض ما لها من فرار ولا نبات « يضل الله الظالمين » فتناسق ظلال التعبير وظلال المعاني كلها في السياق .. » •



نقض العهد

من الفضائل الاجتماعية التي يزرعها الإسلام في نفوس معتنقيه فضيلة الوفاء بالعهد والحفاظ عليه ، وجعل نقضه نقيصة نعى عليها وحذر عاقبتها ، وعن الوفاء بالعهد ونقضه تسوق لنا سورة النحل هذا المثل القرآنى :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها^(١) وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً^(٢) إن الله يعلم ما تفعلون [٩١] ولا تكونوا كالتى نقضت^(٣) غزوها من بعد قوة^(٤) أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ٠٠ » •

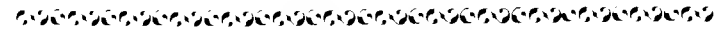
(١) توكيدها : تمويبتها •

(٢) كفيلاً : ضامناً •

(٣) نقضت : حلت •

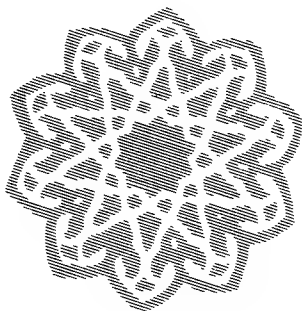
(٤) قوة : إحكام •

(٥) أنكاثاً : طافات و قطعاً محلولة •



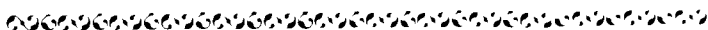
يقول الترمذى فى مخطوطته^(١) : « مثل الذى نقض العهد
 كمثل الغزل الذى نقضته تلك المرأة الحمقاء أنكاناً : نقضاً ، فلا
 هو غزل ينتفع به ولا / هو صوف ينتفع به ، فكذا الذى يعطى
 العهد ثم ينقضه لا هو وفى بالعهد إذا أعطاه ، ولا هو ترك العهد
 فلم يعطه .

وضرب مثلاً آخر لناقض العهد فقال : « ولا تتخذوا أيمانكم
 دخلاً^(٢) بينكم » أى عهودكم بالمكر والخديعة « فتزل قدم بعد
 نبوتها » يقول : إن ناقض العهد يزل فى دينه عن الطاعة ، كما
 تزل قدم الرجل بعد الاستقامة » .



(١) ص ٩٢٧ من المجلد الثانى .

(٢) دخلاً : مفسده .



() واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين ^(١) من
أعناب وحفّفناها ^(٢) بنخل وجعلنا بينهما زرعاً [٣٢] كلّتا
الجنتين آتت أكلهما ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا ^(٣) خلاهما نهراً
[٣٣] وكان له نمر ^(٤) ، فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك
مالاً وأعزّ نفراً ^(٥) [٣٤] ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال :
ما أظن أن تبيد ^(٦) هذه أبداً [٣٥] وما أظن الساعة قائمة ولئن
رددت إلى ربّي لأجدن خيراً منها منقلباً ^(٧) [٣٦] قال له
صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من ترابٍ ثم من
نطفة ^(٨) ثم سوّاك رجلاً [٣٧] لكنّا ^(٩) هو الله ربّي ولا أسرك

(١) جنتين : حديقتين • (٢) حفّفناها : أحطّناها •

(٣) فجرنا : أنبعنا • (٤) نمر : أنواع أخرى من المال •

(٥) اعزّ نفراً : أقوى أعواناً • (٦) تبيد : تفتى •

(٧) منقلباً : مرجعاً • (٨) نطفة : ماء الرجل •

(٩) لكنّا : لكن أنا

بربى أحداً [٣٨] ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما نساء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك ملاً وولداً [٣٩] فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً ^(١) من السماء فتصيح صعيداً ^(٢) زلقاً ^(٣) [٤٠] أو يصبح ماؤها غوراً ^(٤) فلن تستطيع له طلباً [٤١] وأحيط بشمره ^(٥) فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً [٤٢] .

« وهذا المثل ^(٦) ضربه الله تعالى فى وصف حال الكافر الغنى ، وما يحجره إليه البطر من كفران حق المنعم • وحال المؤمن الذى ملاً الإيمان والثقة بالله حسده ، فلا ينظر للمال والحطام إلا نظره للامور المتنقلة والأعراض الزائلة المتحولة ؛ فلو منحها شكر، ولو حرمها صبر، وهو فى كل ذلك كبير الفؤاد عزيز النفس ، بعيد من الدنيا وارتكاب الخطايا •

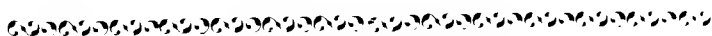
(١) حسباناً : صواعق •

(٢،٣) صعيداً زلقاً : أرضاً ملساً لا شئ عليها •

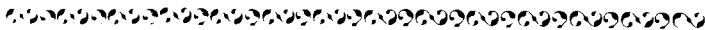
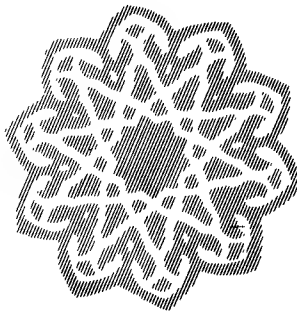
(٤) غوراً : غائراً •

(٥) أحيط بشمره : أهلك أمواله •

(٦) ص ٧٨ من كتاب العظات الدخية فى الأمسال القرآنية والنبوية •



وما سرده الله من تحاورهما يصوّر للإنسان بأجلى بيان كيف
ينفخ الشيطان فى أنوف أصحاب المال ويطغيهم حتى يدهورهم
فى مهادى العدم • وكيف يعلو الإيمان بنفس صاحبه ويهبه أعظم
العلم بالحياة ، وتكاليفها ، والأمور وتصاريقها ، فيجعله مؤيداً
بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويجعل له حسن
العاقبة فى الدارين ؛ فإن العالم لا يقوده إلا العقل والعلم •
والثروة مسخرة لهما » •



ضعف الآلهة ٠٠ وعجز الشركاء

من
سورة
الحج

عن ضعف الشركاء ، ومهانة الآلهة المدّعاة ، وعجز الأصنام ، تنطق بذلك كله تلك الصورة القرآنية التي مثلت الضعف في أقوى صورة ، وجسّمت المهانة تجسّياً صادقاً واقعياً ، وأبرزت عجز هؤلاء الذين ادّعى المشركون أنهم آلهة فادرون يمنحون ويمنعون :

(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً - ولو اجتمعوا له - وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب [٧٣] ما قدروا الله حق قدره ^(١) إن الله لقوى عزيز [٧٤]) .

« والقرآن ^(٢) يعلن عن هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار، مصوّر في مشهد شاخص متحرك تتملّاه

(١) ماقدروا الله حق قدره : ما عرفوه حق معرفته .

(٢) ص ١٢٢ ج ١٧ من كتاب في ظلال القرآن .

العيون والقلوب .. مشهد يرسم الضعف المزرى ، ويمثله أبرع تمثيل .

إنه النداء العام والنفير البعيد الصدى (يا أيها الناس) ..
فإذا تجمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب ،
لاحالة خاصة ، ولا مناسبة حاضرة (ضرب مثل فاستمعوا له)
هذا المثل يضع قاعدة ويقرر حقيقة (إن الذين تدعون من دون
الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) كل من تدعون من دون
الله : من آلهة مدعاة .. من أصنام وأوبان .. ومن أشخاص
وفيم وأوضاع تستنصرون بها من دون الله وتستعينون بقوتها
وتطلبون منها النصر والجاه كلهم (لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا
له) .

والذباب صغير حقير ، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة
لا يقدرون - ولو اجتمعوا وتساندوا - على خلق هذا الذباب
الصغير الحقير .

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل ؛ لأن الذباب
يحتوى على ذلك السرّ المعجز سرّ الحياة فيستوى في استحالة
خلقه مع الجمل والفيل ، ولكن الأسلوب القرآنى المعجز يختار
الذباب الصغير الحقير : لأن العجز عن خلقه يلقي فى الحسّ ظل
~~~~~

الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل دون أن  
يخلّ هذا بالحقيقة في التغيير، وهذا من بدائع الأسلوب القرآنى  
العجيب .

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزرى : ( وإن يسلبهم  
الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ) والآلهة المدعاة لاتملك استنقاذ  
شئ من الذباب حين يسلبها إياه سواء كانت أصناماً أو أوثاناً  
أو أشخاصاً .. !!

وكم عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده ، وقد  
اختير الذباب بالذات - وهو ضعيف حقير - وهو في الوقت ذاته  
يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس ، يسلب العيون  
والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح .

إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمم ..  
ويسلب ما لاسبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير!!

وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآنى  
المعجز : ولو قال « وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذونه  
منها » ، لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف .

والسباع لاتسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب، ولكنه  
الأسلوب القرآنى العجيب !! ويختم ذلك المثل المصور الموحى

بهذا التعقيب ( ضعف الطالب والمطلوب ) ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال ، وما أوحى به إلى المتساعر والقلوب ، وفي أنسب الظروف - والمتساعر تُفيض بالرزانة والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة - يندد بسوء تقديرهم لله ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله .

( ما فدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ) . . ما فدروا الله حق قدره وهم يسركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة التي لا تخلق ذباباً ولو تجمعت له ، بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه . . ما فدروا الله حق قدره - وهم يرون آثار قدرته ، وبدائع مخلوقاته ، هم يسركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقيق !! وما فدروا الله حق قدره وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويدعون الله القوى العزيز !! » .



الله ينير السموات والأرض بنور وحيه السماوى وعقيدته  
الهادية ودينه ذى التعاليم المضيئة التى يهتدى بنورها ويسير فى  
ضوئها وضيائها من أراد الله له سعادة الدارين وحسن المآل .

( الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها  
مصباح المصباح فى زجاجة الزجاج كأنها كوكب درى يوفد من  
شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم  
تسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله  
الأمثال للناس والله بكل شىء عليم [٣٥] ) .

« الله منور الوجود ومجلىه • صفة نوره الذى يفيضه على قلب  
المؤمن ويبعثه له فى سويداء سرائره فيملؤه علماً وهدى كمثل  
مصباح فى مشكاة ، وعلى المصباح قنديل من زجاج ، وفيه زيت  
نقى يزيد ضوء المصباح نوراً • فكما ينير المصباح البيت ويملؤه



نوراً وظهوراً كذلك نور المؤمن يكسبه علماً وهدى ويخرجه من الظلمات إلى النور (١) .

يقول الحكيم الترمذى (٢): « ضرب الله هذا المثل لنوره في قلب المؤمن ليعلمه قدره ومنزلته ، فدلّه بالحاضر على ما أعدّ له في الآجل ، فنفّس المؤمن مثل بيت ، وقلبه مثل قنديل ، ومعرفته مثل السراج ، وفمه مثل الباب ، ولسانه مثل المفتاح والقنديل معلق فيه دهنها من النفس والفتيلة من الزهد ، وزجاجها من الرضا ، وعلائقها من العقل ، إذا فتح المؤمن لسانه بإقرار ما في قلبه واستضاء المصباح من كوّته إلى عرش الله تعالى ، فكلامه نور وعمله نور وظاهره نور وباطنه نور ومدخله في الأعمال نور ويخرجه منها نور ومصيره يوم القيامة إلى النور » ، ويقول الدكتور بدوى (٣) : « ، ، ولكن نظرة إلى الآية الكريمة ترى أن النور المراد هنا هو النور الذى يغمر القلب ، ويشرق على الضمير ، فيهدى إلى سواء السبيل ، أولاترى أن القلب ليس في حاجة إلى أكثر من هذا المصباح ، يلقي عليه ضوءه فيتهدى

---

(١) التفسير المختصر لوجدى .

(٢) ص ٩٣٧ من المجلد الثانى لمخطوطة رسائل الترمذى .

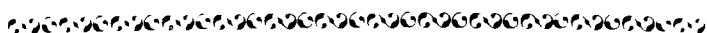
(٣) بلاغة القرآن ص ١٩٥ .

إلى الحق وأفوم السبل ، ثم ألا ترى في اختيار هذا التسيبه إيحاءً بحالة القلب وقد لفه ظلام النسك ، فهو مزرد فلق خائف ، ثم لا يلبث نور اليقين أن يسرق عليه ، فيجد الراحة والأمن والاستقرار فهو كسارى الليل يخبط في الظلام على غير هدى ، حتى إذ أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح في المشكاة وجد الأمن سبيله، إلى قلبه واستقرت الطمأنينة في نفسه وشعر بالسرور يغمر فؤاده .

وإذا تأملت الآية الكريمة رأيته رأيتها قد مضت تصف ضوء هذا المصباح وتتأنق في وصفه ، بما يصور لك قوته وصفاءه ، فهذا المصباح له زجاجة تكسب ضوءه قوة ، تجعله يتلألاً كأنه كوكب له بريق الدرّ ولمعانه . أما زيت هذا المصباح فمن شجرة مباركة قد أخذت من الشمس بأوفى نصيب ، فصفاً لذلك زيتها حتى ليكاد يضىء ولو لم تمسه نار . ألا ترى أن هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمة الليل . ومثله جدير أن يبدد ظلام النسك ويمزق دجى الكفر والنفاق «

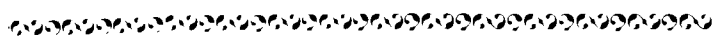
أما الأستاذ سيد قطب فيقول <sup>(١)</sup>: « . . وما يكاد النصّ العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادىء الوضىء فيغمر الكون

(١) في كتابه في ظلال القرآن



كله، ويفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب في الحنايا والجوانح ، وحتى يسبح الكون كله في فيض النور الباهر ، وحتى تعانقه وترشفه العيون والبصائر ، وحتى تنزاح الحجب وتشف القلوب وترف الأرواح ويسبح كل شيء في الفيض الغامر ، ويتطهر كل شيء في بحر النور ويتجرد كل شيء من كثافته وثقله فإذا هو انطلاق ورفرة ولقاء ومعرفة وامتزاج وألفة ، وفرح وحبور وإذا الكون كله بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود تتصل فيه السموات بالأرض والأحياء بالجهاد والبعيد بالقرب وتلتقى فيه الشعاب والدروب والطوايا والظواهر والحواس والقلوب .. ( الله نور السموات والأرض ) النور الذى منه قوامها ومنه نظامها ، فهو الذى يهبها جوهر وجودها ويودعها ناموسها .

ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى - عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة - بعد تحطيم الذرة - إلى إشعاعات منطلقة لا فوام لها إلا النور!! ولا « مادة» لها إلا النور ، فذرة المادة مؤلفة من كهارب وأليكترونات تنطلق عند تحطيمها في هيئة إشعاع فوامه هو النور ..





فأما القلب البشرى فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم  
بقرون وقرون .. كان يدركها كلها شفّ ورفّ وانطلق إلى آفاق  
النور .

ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ففاض بها وهو عائد من الطائف نافض كفيه من الناس ،  
عائد بوجه ربه ، يقول : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به  
الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة » وفاض بها فى رحلة  
الإسراء والمعراج: فلما سأله عائشة : هل رأيت ربك ؟ قال  
« نور .. أنى أراه ... »

ولكن الكيان البشرى لا يقوى طويلاً على تلقى ذلك الفيض  
الغامر دائماً ، ولا يستشرف طويلاً ذلك الأفق البعيد ، فبعد أن  
جلا النصّ هذا الأفق المترامى ، عاد يقارب مداه ويقربه إلى  
الإدراك البشرى المحدود فى مثل قريب محسوس ( مثل نوره  
كمشكاة فيها مصباح .. المصباح فى زجاجة .. الزجاجة كأنها  
كوكب درى .. يوقد من شجرة مباركة .. زيتونة .. لا شرقية  
ولا غربية .. يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار .. نور على  
نور )

وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود .. ويرسم  
~~~~~

النموذج المصغر الذى يتأمله الحس حين يقصر عن تملّى الأصل .

وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاه المترامية وراء ذلك الإدراك البسرى الحسير .

ومن عرض السموات والأرض إلى المسكاة - وهى الكوة الصغيرة فى الجدار ، غير النافذة - يوضع فيها المصباح فتحصر نوره ، وتجمعه فيبدو قوياً متألّفاً (كمسكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة) تقيه الريح ، وتضفى نوره فيتألق ويزداد (الزجاجة كأنها كوكب درى) فهى بذاتها سفاقة رائقة سنية منيرة .

هنا يصل بين الحقيقة والمثل بين النموذج والأصل . . حين يرتقى من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير كى لا ينحصر التأمل فى النموذج الصغير الذى ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير . . وبعد هذه اللفتة يعود إلى النموذج . . إلى المصباح :

(يوقد من شجرة مباركة زيتونة) ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون ، ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل ، إنما هو كذلك الظلال المقدسة التى تلقىها الشجرة المباركة . . ظلال الوادى المقدس فى الطور ، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب . وفى القرآن إشارة لها وظلال حولها :

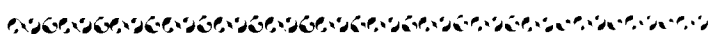
(وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين)

وهى سجرة معمرة ، وكل ما فيها مما ينفع الناس ، وزيتها
وخسبها ، وورقها ، ومحرها •

ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل
الكبير : فهذه السجرة ليست سجرة بعينها، وليست متحيزةً إلى
مكان أوجهة •• إنما هى مثل مجرد للتقريب (لا شرقية ولا
غربية) •• وزيتها ليس زيتاً من هذا المسهود المحدود إنما هو
زيت آخر عجيب : (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار ، نور
على نور) وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق فى نهاية
المطاف ••

إنه نور الله الذى أسرفت به الظلمات فى السموات
والأرض •• النور الذى لا ندرك كنهه ولا مداه ، إنما هى محاولة
لوصل القلوب به والتطلع إلى رؤياه (يهدى الله لنوره من يساء)
ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه ، فهو سائع فى السموات
والأرض ، فائض فى السموات والأرض ، دائم فى السموات
والأرض ، لا ينقطع ولا يحتبس ولا يخبو ، فحيثما توجه إليه القلب
رآه ، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه ، وحيثما اتصل به وجد الله •

إنما المثل الذى ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك ،
وهو العليم بطاعة البسر : (ويضرب الله الأمثال للناس ، والله
بكل نىء عليم) •



(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون [٤١] إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم [٤٢] وتلك الأموال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون [٤٣]) .

« يضرب الله هذا المثل لحقيقة القوى المتصارعة في هذا المجال .. إن هنالك قوة واحدة : هي : قوة الله . وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن . من تعلق به أو احتسى فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتسى ببيت من خيوط واهية ، فهي وما تحتسى به سواء .

هذا المثل تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود : الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في

أيديهم جميع الموازين ، ولا يعرفون إلى أين يتوجهون ، ماذا يأخذون وماذا يدعون !! وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض ، فيتوجهون إليها بخاوفهم ورغباتهم • ويخسونها ويفزعون منها ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها أو يضمّنوا لأنفسهم حماها !!

وتخدعهم قوة المال ؛ يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة •• ويتقدمون إليها في رغب وفي رهب ، ويسعون للحصول عليها ليستطيّلوا بها ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون !!

وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال وأصل سائر القوى التي يصل بها من يملكها ويجول •• ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب !!

وتخدعهم هذه القوى الظاهرة •• تخدعهم في أيدي الأفراد •• وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول ، فيدورون حولها ويتهافتون عليها ، كما يدور الفراش على المصباح وكما يتهافت الفراش على النار !! وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة وتلكها وتمنحها وتوجهها وتسخرها كما تريد حيثما تريد •

~~~~~

وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى ، سواء كانت في أيدي  
الأفراد أو الجماعات أو الدول كالتجاء العنكبوت إلى بيت  
العنكبوت .. حشرة صغيرة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها  
الرخو ، ولا وفاة لها من بيتها الواهن ..  
وليس هناك إلا حماية الله وإلا حماه ، وإلا ركنه القوى  
الركين ..

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عنى القرآن بتقريرها في نفوس  
الفئة المؤمنة فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في  
طريقها ، وداست بها على كبرياء الجبابة في الأرض ودكت بها  
المعاقل والحصون ..

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس ، وعمرت كل  
قلب ، واختلطت بالدم وجرت معه في العروق ، ولم تعد كلمة  
تقال باللسان ولا فضية تحتاج إلى جدل ، به بديهة مستقرة في  
النفس لا يجول غيرها في حس ولا خيال .

قوة الله وحدها هي القوة ، وولاية الله وحدها هي الولاية ،  
وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ، مهما علا واستطال ، ومهما  
تجبر وطفى ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل .

إنها العنكبوت : وما تملك من القوى ليست سوى خيوط  
العنكبوت ، ( وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت ) •

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى ،  
وللإغراء والإغواء ، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة  
الضخمة ، ولا ينسوها لحظة وهم يواجهون القوى المختلفة : هذه  
تضربهم وتحاول أن تسحقهم ، وهذه تستهويهم وتحاول أن  
تستريهم ، وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله ، وفي حساب  
العقيدة حين تصح العقيدة وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن  
التقويم والتقدير •

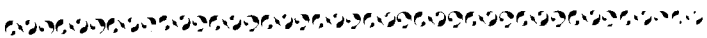
( إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ) إنهم يستعينون  
بأولياء يتخذونهم من دون الله ، والله يعلم حقيقة هؤلاء الأولياء ،  
وهي الحقيقة التي صورت في المثل السابق : عنكبوت تحتسى  
بخيوط العنكبوت » (١) ••

ويقول صاحب كتاب - من بلاغة القرآن - (٢) : « وكثر في  
القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقى

---

( ١ ) ج ٢٠ ص ١٢١ في ظلال القرآن •

( ٢ ) ص ١٩٣ •



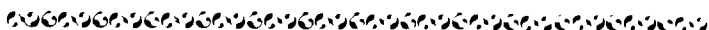
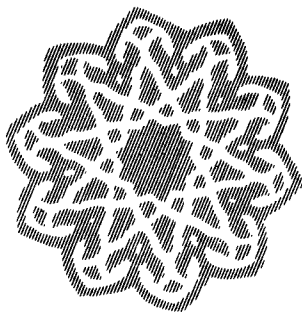
عليها أشعة الضوء تغمرها ، فتصبح شديدة الأثر ، وها هو ذا يمثل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله ، وهذا لن يفيدهم فائدة ما ؛ فهم يعبدون ويبدلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدى ، فوجد في العنكبوت ذلك الحيوان الذى يتعب نفسه في البناء ، ويبدل جهده في التنظيم ، وهو لا يبنى سوى أوهن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوى فزادته وضوحاً وتأثيراً » •

وبعد هذا المثل الإلهي مضت الآية الشريفة تقول : ( وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ) : اجتمع الكفر وتكتل النفاق وفام بحملة بلبلة وتسكيك يزرع بها في النفوس الغضة الإيمان بذور السرك والتردد والارتداد والنكوص • واتخذ من ضرب الله الأمثال بالذباب والعنكبوت قوام حملته ومادة تشهيره وسلاح تفرقته ، وظلت أبواق الحملة تنادى بأن الله لاتصدر عنه هذه الأمثال زاعمة أنه ما كان لكلام العظيم أن يتضمن هذه الأشياء الحقيرة الصغيرة فهى إذن ليست من عند الله !! وهى بالتالى من عنديات محمد ومن افتراءاته •• ونزل قول الله: ( إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ، ما بعوضة فما فوقها •• ) الله ربّ الناس وخالق الكون بما فيه وبمن فيه ••



الله القادر العظيم ٠٠ ومن دلائل قدرته وسر عظمته أن يخلق  
الجرم الصغير والجسم القمىء ذا الجزئيات الدقيقة الرفيقة ،  
والشعيرات المرفقة الحساسة ؛ لينبىء عن قدرته وتفرد به بالخلق  
والإيجاد والتكوين ٠

فردت الآية بذلك كيد الكافرين ودفعت إفتراءاتهم وغسلت من  
نفوس المؤمنين بوارد الريب، وصفتها وهياتها للقبول فقطعت  
بذلك على الكافرين كل طريق ٠



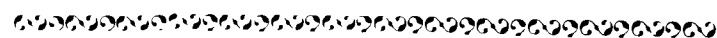
سدة ورحمة .. ورقة وغلظة ..

سدة وغلظة على أعداء الدين ، ورأفة ورحمة بإخوانهم  
المؤمنين ، هؤلاء هم صحابة محمد ..  
في الحرب أرواحهم على أكفهم ، يسبقون الموت إلى ملاقاته  
الأعداء .

وفي السلام حبّ ودعة .. ورقة حاشية ، ودمانة خلق ،  
وخشوع وخضوع ، وركوع وسجود ، وابتهاال ودعاء ، وعبادة  
وإخلاص ، وإشراق وصفاء .

ذلك مثلهم في التوراة ووصفتهم فيها ومثلهم كذلك في  
الإنجيل كزرع أثمر وأينع ، ثم قوى وغلظ ، ثم استوى واستقام  
حتى أعجب الخاصة من الزراع والعامة من الناظرين :

( محمد رسول الله ، والذين معه أسدء على الكفار رحماء



بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً  
سيأهم<sup>(١)</sup> في وجوهم من أنر السجود ذلك مثلهم في التوراة  
ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه<sup>(٢)</sup> فأزره<sup>(٣)</sup> ،  
فاستغلظ<sup>(٤)</sup> فاستوى على سوفه<sup>(٥)</sup> ، يعجب الزارع ..  
[ ٢٩ ] .

يقول المحقق الألوسي<sup>(٦)</sup> : « يعجب الزراع بقوته ،  
وكثافته ، وغلظه ، وحسن منظره . وخصّهم الله تعالى بالذكر ،  
لأنه إذا أعجب الزراع ، وهم يعرفون عيوب الزرع ، فهو أخرى  
أن يعجب غيرهم . وهنا تمّ المثل .

وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للصحابه رضى الله تعالى  
عنهم : فلوا في بدء الإسلام ، ثم كثروا ، واستحكموا ، فترقى  
أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس » .  
ثم يتابع الألوسي كلامه فيقول : « وفي الكشف : هو مثل

( ١ ) سيهم : علامهم .

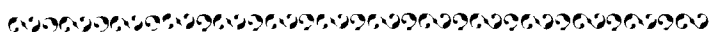
( ٢ ) شطأه : فروعه في الجانبين .

( ٣ ) أزره : أعانه .

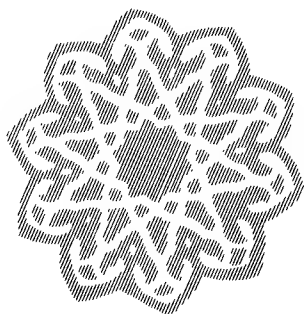
( ٤ ) استغلظ : تحول من الدفة إلى الغلظة .

( ٥ ) استوى على سوفه : استقام على سبيله .

( ٦ ) ( ص ١٢٧ ج ٢٦ من تفسيره « روح المعاني » .



ضربه الله تعالى لبدء ملة الإسلام وترفيهه في الزيادة إلى أن قوى  
واستحكم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده ، ثم فوّاه  
الله تعالى بمن معه كما يقوى الطافة الأولى ما يحتف بها مما يتولد  
منها • وظاهرة أن الزرع هو النبي صلى الله عليه وسلم ،  
والشطاء أصحابه رضى الله تعالى عنهم ، فيكون مثلاً له عليه  
السلام وأصحابه ، لا لأصحابه فقط » •



في مطلع سورة الروم تتحدث آيات عن قوّة الله وآيات قدرته ،  
من خلق الانسان والأرض والسموات ، وخلق الكون بما فيه  
وبمن فيه ، وبدء الخلق ثم إعادته •

وفي هذا دعوة للمفكرين لأن يتأملوا هذه الظواهر الكونية ،  
ليصلوا من هذا الطريق التأملى إلى الله •

والنتيجة المنطقية لهذه المقدمات - بالنسبة للخارجين عن  
حظيرة الدين - كانت يجب أن تكون الإيمان بالقوى وقوّته ،  
والإذعان للقادر وقدرته •• غير أن الخارجين عن حظيرة الدين  
- وكثير ما هم - لم يؤمنوا بهذه النتيجة ولم يعترفوا بها وأقاموا على  
شركهم !!

وكان أن تدرّج الهدى الإلهي معهم ، فلجأ المنطق القرآني إلى

مثل واقعى يعيشه هؤلاء الظالمون المشركون .. مثل من واقع حياتهم ، ومن ذاتيتهم ومن أنفسهم :

( ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ، هل لكم من ماملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء <sup>(١)</sup> تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون [٢٨] )  
إن ما تملكونه لم تمنحه لكم أصنامكم ، ولا أوثانكم ، ولا الشركاء الذين اتخذتموهم من دون الله .

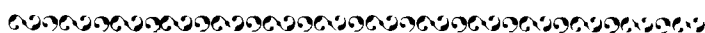
إنما الذى رزقكم بها هو الرازق القدير ، والذى منحكم إياها هو الواحد الأحد على رغم كفركم وإبائكم ، وعلى رغم شرككم ونفوركم .

هؤلاء الموالى هل يشاركون أحد فيها ؟

وهل ترضون أن يتصرف أجنبى معكم فى توجيهها ، أو القيام على شئونها ، أو التحكم فيها ؟ وهل ترضون أن يشاركون أحد من عبيدكم فى شىء من أرزاقكم وأموالكم ؟!  
إذا كنتم أنتم لا ترضون الشركة على أى وجه فيما تملكون ،

---

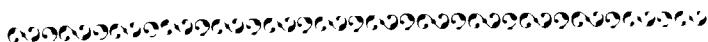
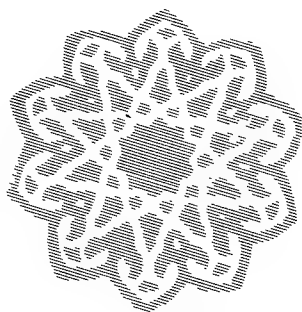
( ١ ) فأنتم فيه سواء : أنتم وهم متساوون فى التصرف .



فكيف تجيزونها لملك الملك .. الواحد الأحد .. الفرد الصمد  
الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؟!

عجباً!! تجعلون لله الخالق الرازق شركاء من عبيده ومخلوفاته  
وتأنفون أن يشارككم الشركاء في عبيدكم وإمائكم وأموالكم  
ومواليكم؟ إن المنطق والعقل يحتم عليكم لو كنتم تعقلون أن  
توحدوا ..

وكذلك يفصل الله الآيات لقوم يعقلون ، ويضرب الأمثلة لمن  
يعقلها ويتدبرها ..



## قرية ظالمة !!

من  
سورة  
يس

رُسِّلُ ترسل وتعرِّز الى كفره فجرة ، ينفرون ويجادلون ..  
ومؤمن منهم ينصح بم .. ويخلص في نصحه ، ويوجههم إلى  
صائب العقيدة ، ويستنكر عبادة ما سوى الله ..  
ثم نهاية الايمان ، وعاقبة الاشراك .  
كل هذه المشهد تجلوها لنا تلك القصة الآتية التى سافها  
ذلك المثل القرأى :

( واضرب لهم مثلاً : أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون  
[١٣] إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا  
إليكم مرسلون [١٤] قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل  
الرحمن من شئ إن أنتم إلا تكذبون [١٥] قالوا : ربنا يعلم إنا  
إليكم لمرسلون [١٦] وما علينا إلا البلاغ المبين [١٧] قالوا: إنا  
تطيرنا <sup>(١)</sup> بكم ، لئن لَمْ تنتهوا لترجمنكم <sup>(٢)</sup> ، وليمسنكم منا

( ١ ) تطيرنا : تثناء منا .

( ٢ ) لترجمنكم : لنقتلنكم ربما بالحجارة



عذاب أليم [١٨] قالوا : طائركم <sup>(١)</sup> معكم أئن ذكركم <sup>(٢)</sup> ، بل  
 أنتم قوم مسرفون [١٩] وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ،  
 قال : يا قوم اتبعوا المرسلين [٢٠] اتبعو من لا يسألکم أجراً وهم  
 مهتدون [٢١] ومالى لا أعبد الذى فطرني <sup>(٣)</sup> وإليه ترجعون  
 [٢٢] أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحم بضر لا تغنى عني  
 سفاعتهم شيئاً ولا ينقدون [٢٣] إني إذا لفى ضلال مبين [٢٤]  
 إني أمنت بربكم فاسمعون [٢٥] قيل ادخل الجنة قال : ياليت  
 فومي يعلمون [٢٦] بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين [٢٧]  
 وما أنزلنا على قوميه من بعده من جند من السوء وما كنا منزلين  
 [٢٨] إن كانت إلا صيحة <sup>(٤)</sup> واحدة فإذا هم خامدون  
 [ ٢٩ ] .

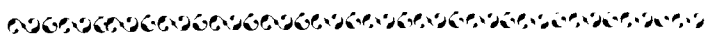
والإيمان بحرصه على الصلاح ، وسعيه في الهداية والإصلاح ،  
 ودعوته إلى العقيدة الصحيحة ، ومنطقه في التدليل عليها ،  
 واستنكاره الضلالات والأوهام وبياته على خالص المبادئ  
 واستشهاده في سبيلها وحسن خاتمته وموفور جزائه كل ذلك تمثله

( ١ ) طائركم : شؤمكم .

( ٢ ) أئن ذكركم : أئن ذكرناكم بالله ورسالة رسله تؤذوننا .

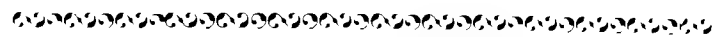
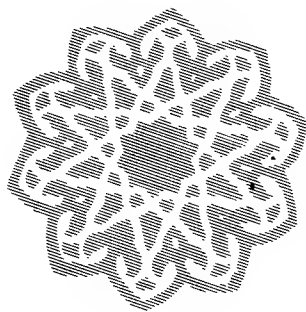
( ٣ ) فطرني : خلفني .

( ٤ ) صيحة : صرخة .



شخصية ذلك الرجل المؤمن الذى تحدث عنه آيات هذا المثل •  
والكفر بلجأته وعناده وإصراره وتكذيبه ، وتطاوله وتهديده ،  
وتعطشه إلى الدماء ، واغتياله أرواح الهداة ، وسرعة انتقام الله  
منه وأخذه أخذ عزيز مقتدر •

والرسل بهديهم ووحيمهم وجهادهم ومنطقهم •  
كل هذه المساهد عرضها علينا ذلك المثل الإلهي داعياً رسول  
الإسلام محمداً عليه الصلاة والسلام ، وداعياً كل شخصية  
إسلامية محمدية أن تذكر بهذا المثل وبما يحمل من هدى جليل  
وتوجيه جميل وتبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو  
شاهد •



## نهاية الكفر ٠٠ ومصير التكذيب

من  
سورة  
النحل

فرية من فرى الأولين تنام على دعة ، وتستيقظ على أمن ،  
وتعيش في رغد ورفاهية ونعمة ونعيم .

جاءها منذر من أهلها ، وهاد من أنفسهم ، وموجه من  
جلدتهم ٠٠ دعاهم إلى شكر المنعم بعبادته وتوحيده ، فأعرضوا  
عن الدعوة ، وكفروا بالرسول المرسل وبالمنعم المرسل !

ومن يسر في طريق الكفر فلن يصل في النهاية إلا إلى  
الهاوية ، ولن يسلمه الطريق إلا إلى سوء المصير !!

( وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها  
رغداً <sup>(١)</sup> من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله <sup>(٢)</sup> ؛ فأذاقها الله

لباس <sup>(٣)</sup> الجوع والخوف بما كانوا يصنعون [ ١١٢ ] ) .  
ينبثق من هذا المثل إنذار يشير إلى سوء المنقلب وتعاسة  
المرجع والعاقبة لا لقرية بعينها ، ولا لفرد بذاته ، بل للجميع

( ٢ ) أنعم الله : نعمة .

( ١ ) رغداً : واسعاً

( ٣ ) لباس : آلام .

الأفراد والجماعات والدول المجتمعات وإن كفرت وتولت .  
وأعرضت وعارضت وحاربت داعى الله ذهب ريجها ونكصت  
على عقبها وحلت بها النعمة محل النعمة .

يقول الزمخشري : (١) « . . . إن الله جعل القرية التي هذه  
حالتها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة ، فكفروا  
وتولوا فأنزل الله بهم نعمته ، أو يجوز أن تكون قرية من قرى  
الأولين كانت هذه حالها فضرها الله مثلاً لمكة ، إنذاراً من مثل  
عاقبتها » .

ويقول الأستاذ قطب في كتابه (٢) : « . . . حال هذه القرية  
أشبه شيء بحال مكة جعل الله فيها البيت الحرام ، وجعلها بلداً  
حراماً ؛ من دخله فهو آمن مطمئن ، لا تمتد إليه يد ، ولو كان  
قاتلاً ، ولا يجرو أحد على إيذائه ، وهو في جوار بيت الله  
الكريم :

وكان الناس يتخطفون من حول البيت ، وأهل مكة  
في حراسته وحمايته آمنون مطمئنون .

كذلك كان رزقهم يأتيهم هيناً هيناً من كل مكان ، مع  
الحجيج ، ومع القوافل الآمنة ، مع أنهم في واد ففر جندب غير

---

( ١ ) في تفسيره الكشف ج ٢ ص ١٧٧ .

( ٢ ) في ظلال القرآن ج ١٤ ص ٦ .

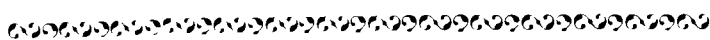
ذى زرع ، فكانت تجبى إليهم سمرات كل سىء فيتذوفون طعم  
الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل .

ثم إذا رسول منهم يعرفونه صادقاً أميناً ، ولا يعرفون عنه  
ما يشين ، يبعثه الله فيهم رحمة لهم وللعالمين ، ودينه دين إبراهيم  
باني البيت الذي ينعمون في جواره بالأمن والطمأنينة والعيش  
الرغد ، فإذا هم يكذبونه ، ويفترون عليه الافتراءات ، ينزلون  
به وبمن اتبعوه الأذى وهم ظالمون !!

والمثل الذي يضربه الله منطبق على حالهم . وعاقبة المثل  
أمامهم مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً  
من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، وكذبت رسوله ( فأذاقها الله  
لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ) وأخذ قومها العذاب  
وهم ظالمون .

ويجسم التعبيرُ الجوعَ والخوفَ فيجعله لباساً ، ويجعلهم  
يذوفون هذا اللباس ذوقاً ، لأن الذوق أعمق أثراً في الحسّ من  
مساس اللباس للجلد .

وتتداخل في التعبير استجابات الحواس ، فتضاعف مس  
الجوع والخوف لهم ، ولذعه وتأثيره ، وتغلغله في النفوس لعلمهم  
يسفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون «



اليهود ، كلفهم المولى العمل بالتوراة لتضمنها عقيدة الله وسريته ، فلم يعملوا بها ، ولم يقدرها حق قدرها ، ولم ينتفعوا بما تضمنته من عقيدة وسريعة ، فمثلهم كمثل الحمار يحمل فوق ظهره كتباً قيمة وأسفاراً نافعة يستفيد بها الغير ، وهو جاهل بما يحمل لا يستفيد منه ولا ينتفع به :

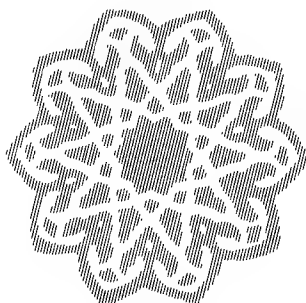
( مثل الذين حملوا <sup>(١)</sup> التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً <sup>(٢)</sup> ) بش مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين [ ٥ ] ) .

» ومن خصائص التشبيه القرآنى دفته ، فهو يصف ويقيد ، حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، وخذ مثلاً لذلك قوله

( ١ ) حملوا التوراة : كلفوا العمل بها .

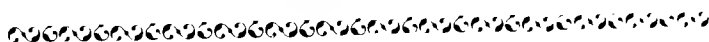
( ٢ ) أسفاراً : كتباً .

تعالى : ( مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ٠٠ ) فقد يترأى أنه يكفى في التشبيه أن يقال : مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل ، ولكن الصورة تزداد قوّة والتصاقاً والتحاماً حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة فلم ينتفعوا بما فيها ، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدرى مما ضمنه شيئاً ، فتمام الصورتين يأتى من هذا القيد الذى جعل الصلة بينهما قوية « (١) » .




---

( ١ ) ص ١٩٩ من كتاب من بلاغة القرآن .



« يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئاً »

بهذا التحذير المحمدي لأقرب المقربين إليه ، لفلذة كبده فاطمة ، يقرر رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام مبدأ من أهم المبادئ الإسلامية ، وأساساً من أسس العقيدة الإلهية ( كل امرئ بما كسب رهين ) لا يغنى أحد عن أحد شيئاً ، لا معول إلا على العقيدة الشخصية ولا اعتماد إلا على السلوك الفردي ، لا محاباة ، ولا محسوبية ، ولا استثناء .

خائن العقيدة له ميقات لا تنفعه فيه فراية ، ولا تنفع له صلة ، ولا يجديه نسب ولا تغنى عنه صلات قرياه لأقرب الأشخاص إليه ، ولو كان رسولاً من عند الله « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » .

كل فرد مسئول عن ذاتيته وعقيدته وسلوكه الفردي ، وهذا المبدأ الإسلامي قد فرره القرآن بادية ذى بدء عندما عرض لنا



شرائح للإيمان الذى نبت وسط أشواك الكفر وحسك الشرك ،  
وشرائح للكفر الذى وُلد فى محيط العقيدة السليمة الصحيحة •

فامرأة نوح خانت زوجها الرسول الصالح خيانة عقيدة  
لاخيانة فحشاء وظهرت أعداءه ونبّصت سائتيه وأسهمت مع  
خصومه فى السخرية والاستهزاء به وامرأة لوط كانت تدل قوم لوط  
على ضيوف لوط وهى تعلم صنيعهم مع هؤلاء الضيوف !!

لم تنفع هذه الآصرة التى تربط كل واحدة من هاتين المراتين  
بزوجها فكان مسيرها إلى النار • • ومصيرها أسوأ مصير ،  
فلاشفاعة ولا استثناء فى شأن الكفر والإيمان •

وامرأة فرعون التى فرّت إلى ربها • وهى تتقلب فى أعطاف  
النعيم الحسى - لم تعس ناظرها أبهة الملك ومظاهر العظمة وألوان  
الترف الذى أعدّها لها وأضفى عليها باعتباره المرأة الأولى فى  
المملكة الفرعونية •

نبذت ذلك كله ، وطرحته وراءها ظهريا ، وولت وجهها سطر  
السما تسأل من فى السماء أن ينجيها من فروعون وعمله ومن  
شره وأشره ومن عقيدته وحاشيته •

ومريم ابنة عمران البتول الطاهرة ، المحصنة ، العفيفة  
الشريفة التى حافظت على طهارتها فى البيئة الفاجرة ،

~~~~~

وحافظت على إيمانها في البيئة الكافرة ، فصَدَّقَتْ برّها وكلماته
وكتبه .

وكانت من أجل ذلك قائنة عابدة متبيلة شاكرة في ذاك الوقت
الذى عَزَّ فيه العابد الشاكر .

آسيا امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران نموذجان للمرأة المؤمنة
المتطهرة القائنة يقدمها الهدى الإلهي لزوجات النبي ، وللنساء في
كل جيل ليتحملن التبعة ، التي لا يعفيهن منها أنهن زوجات
نبي أو صالح من المسلمين .

عن هذه الزوايا المظلمة والمضيئة .. وعن هذه المسئولية
الفردية وعن هذا الإيمان الذي لم تزعزعه ريح الكفر تحدثنا هذه
الآيات الموحية .

« ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط كانتا
تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من
الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين [١٠] وضرب الله مثلاً
للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة
ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين [١١] ومريم
ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت
بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين [١٢] » .

~~~~~

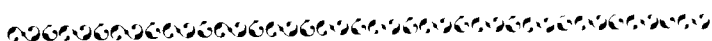
## الأمثال فى ظلال اللغة

### الأمثال :

جمع مثل ، والمثل : قول فى سىء يشبه قولاً فى سىء آخر بينهما  
مناسبة ، ليعين أحدهما الآخر ويصوّره .

وقال المبرد : المثل مأخوذ من المثل ، وهو : قول سائر يشبه به  
حال الثانى بالأول . والأصل فيه التشبيه .

وقد يطلق المثل ويراد به الصفة الموضحة الكاسفة عن  
الحقيقة أو الحالة ، كقوله تعالى : ( مثل الجنة التى وعد المتقون )  
أى صفتها وقوله : ( للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ) أى  
صفة السوء فد يراد به النظير ، كما فى قوله تعالى فى سورة يس :  
( وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ) أى ضرب لنا ذلك المنكر نظيراً  
من الخلق قاس قدرتنا على قدرته وقد يراد به العظة والعبرة كقوله  
تعالى : ( فلما أسفونا انتقمنا منهم فجعلناهم سلفاً ومثلاً  
للآخرين ) .

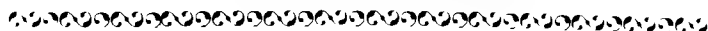
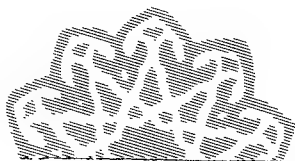


وعد يراد به الأمر العجيب ، كقوله سبحانه في شأن عيسى عليه السلام :

( إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ) ••

- أما الند فإنه يقال فيما يشارك في الجوهر فقط .
- وأما السبه فإنه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط .
- وأما المساوى فإنه يقال فيما يشارك في الكمية فقط .
- وأما الشكل فإنه يقال فيما يشارك في القدر والمساحة فقط .
- والمثل عام في جميع ذلك .

ومن دقائق التعابير القرآنية أن القرآن حينما أراد نفى التشبيه عن المولى سبحانه من كل وجه قال : ( ليس كمثله شئ )  
فالتعير بمثل أعم وأشمل لكل معانى المشاركة .



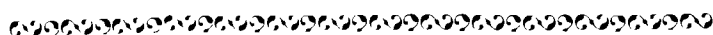
## الله المثلى الأعلى

الصفات المحمودة كلها تسند لله ، ولا يجوز أن نصفه بصفة مما يوصف بها البشر إلا بما وصف به نفسه .

وفد صوّر القرآن الله المثل الأعلى في جميع صفات الجلال والجلال والكمال ، فهو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، الأول والآخر والظاهر والباطن والصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، السميع الخبير ، على كل شئ قدير غفور رحيم ، حتى يوم ، واسع علیم ، بصير بالعباد يحب المحسنين والصابرين لا يحب الظالمين يمحى الكافرين ، غنى حميد ، واحد فهى نور السموات والأرض قوى خالق شديد ، على كل شئ شهيد عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم سريع الحساب غنى عن العالمين ، علیم بذات الصدور بكل شئ محيط على كبر ساكر حلیم ليس بظلام للعبيد .. إلخ .

ومن كانت هذه الصفات المثالية صفاته فلا يجوز أن نصفه

بغيرها .



## نهی

لذا نهى الله سبحانه عن أن يضرب له الأمثال ، فقال :  
( فلا تضربوا لله الأمثال ) هو يضرب لنفسه الأمثال ، ولا يجوز  
لنا أن نقنّدى به ، لأنه يعلم ، ونحن لانعلم .

يقول ابن قتيبة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » (١) :  
( فلا تضربوا لله الأمثال ) : فلا تصفوه بصفات غيره ، ولا  
تشبهوه به ) .

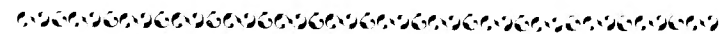
والطبرى يقول : « فلا تمثلوا لله الأمثال ولا تشبهوا له  
الأشباه ، فإنه لا مثيل له ولا شبيه » تعالى الله عن ذلك علواً  
كبيراً .

وقال الإمام محمد بن على الترمذى (٢) : « إن ضرب الأمثال  
لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء ، فالعباد يحتاجون  
إلى ضرب الأمثال ، إذ قد خفيت عليهم الأشياء ، فضرب الله

---

( ١ ) ص ٣٧٩ .

( ٢ ) ص ٩٣٠ من مخطوطة .

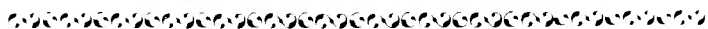
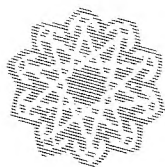


لهم مثلاً من عند أنفسهم . . لا من عند نفسه ، ليدركوا ماغاب عنهم »

فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال « تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » فلا جرم ، ما ضرب الأمثال من نفسه لنفسه ، وكيف ، ولا مثل له ، ولا شبيه له ، فلذلك قال جلّ ذكره : ( فلا تضربوا الله الأمثال ) .

فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار ، لتهدى النفوس بما أدركت عياناً . فمن تدير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ، ليعلوا بها فيدركوا ماغاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ، فمن عقل الأمثال سمّاه الله تعالى في كتابه عالماً لقوله تعالى :

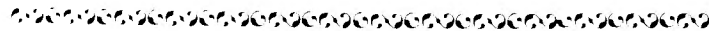
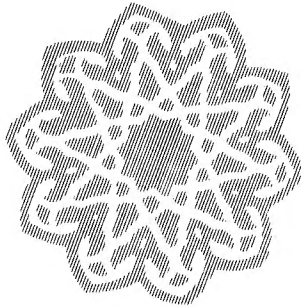
( وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ) .



وبعد ...

فهذه هي الأمثال القرآنية بهديها ووحيتها .. وبمنهجها  
وهدفها ، عرضتها ماوسعنى الجهد فى هذا الكتاب .  
ولعلى أكون بما قمت قد وفقت فى إبرازها أو إبراز جانب منها  
ملاً فراغاً كان شاغراً فى المكتبة القرآنية ..

محمود بن الشريف







|                      |                          |
|----------------------|--------------------------|
| تفسير أبى السعود     |                          |
| تفسير الطبرى         |                          |
| تفسير روح المعانى    | لمحمود الألوسى           |
| التفسير المختصر      | لمحمد فريد وجدى          |
| تفسير المنار         | للأستاذ الإمام محمد عبده |
| مقدمة المصحف المفسر  | لمحمد فريد وجدى          |
| أدب الدنيا والدين    | للحسن البصرى             |
| رسائل الحكيم الترمذى | ( مخطوطة فى مجلدين )     |
| العظات الدينية       | لعلى فكرى                |
| فى ظلال القرآن       | لسيد قطب                 |
| من بلاغة القرآن      | للدكتور أحمد بدوى        |

تم طبع هذا الكتاب  
على مطابع دار عكاظ  
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

